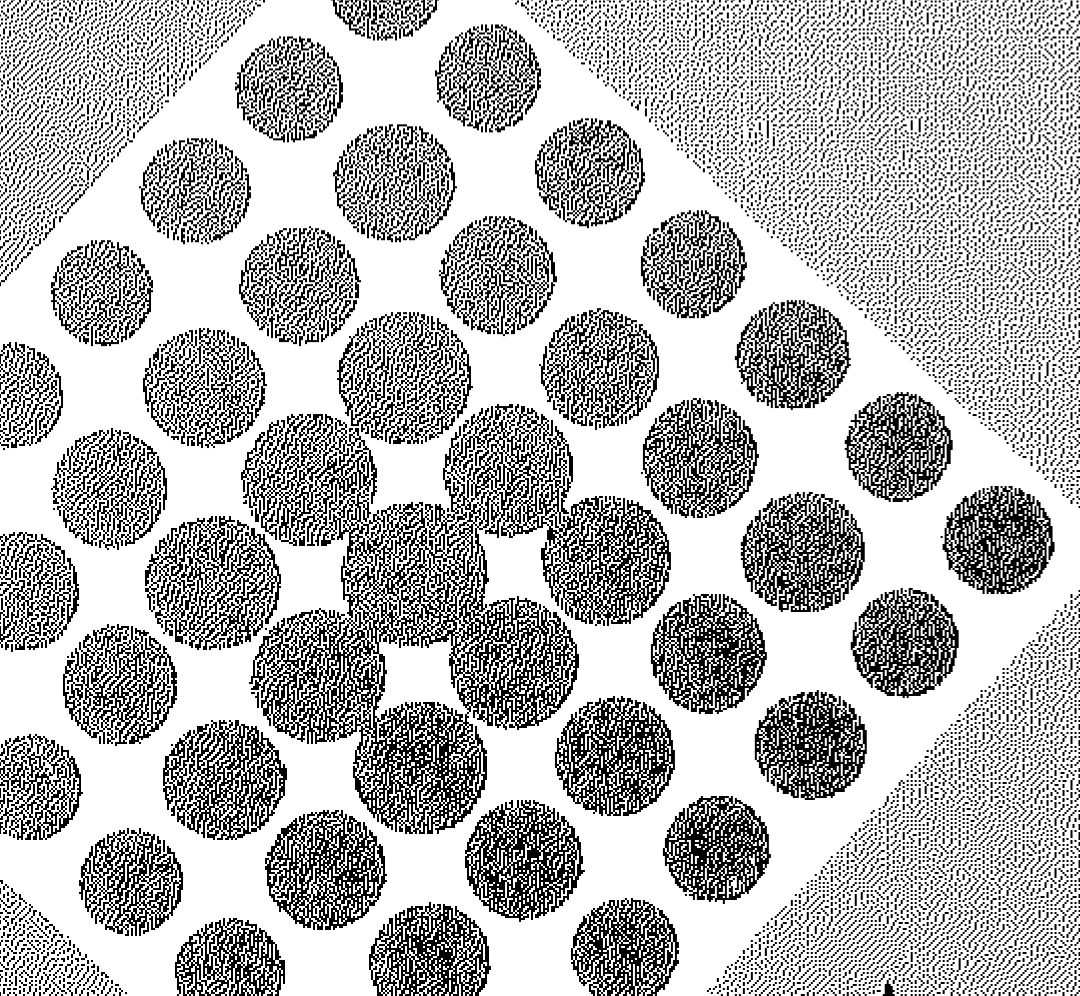






التسامح



د. جمال عبد الجواد

٣

التسامح

موسوعة الشباب
السياسية
سلسلة خاصة يصدرها
مركز الدراسات
السياسية والاستراتيجية
بالأهرام

رئيس مجلس الادارة
ورئيس التحرير
ابراهيم نافع

مدير المركز
د . عبد المنعم سعيد

المشرف العام
د . وحيد عبد المجيد

المدير الفنى
السيد عزمى

خطوط
حامد العويضى

سكرتير التحرير
حسنى ابراهيم



التسامح

د. جمال عبد الجواد

القاهرة ٢٠٠٠

شارع الجلاء – ت : ٥٧٨٦٠٣٧

المحتويات

تقديم

التسامح هو موقف من الآخر سواء كان إنساناً أو فكرا أو رأياً. انه الموقف الذى ينم عن سعة صدر واستعداد لفهم وتفهم الآخرين سواء كانوا أجانب مختلفين فى الأصل أو الجنس أو الدين أو اللغة، أو كانوا من أبناء الوطن ولكنهم يختلفون فى الرأى والفكر والمصالح .

وإذا كانت بعض المواقف تُعرف بعكسها ، فهذا ينطبق على التسامح الذى ربما يلاحظ شبابنا المعنى المقابل له - وهو التعصب - اكثر مما يرونه رغم أن الأصل فى ثقافتنا التاريخية هو الوسطية التى تنطوى على قدر من التسامح .

ولكن هذا القدر يزداد فى فترات ويقل فى أخرى وفقاً لمتغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية ونفسية تؤثر على أنماط السلوك والقيم الثقافية. وقد جاءت هذه المتغيرات فى العقود الأخيرة بتعصب أكثر وتسامح أقل.

ومن هنا حاجتنا الى إعادة تأكيد أهمية التسامح ونبذ التعصب سواء السياسى أو الدينى أو العائلى أو العشائرى أو حتى الرياضي. والتسامح ليس فقط قيمة نبيلة مثلما أن التعصب ليس مجرد موقف مرذول. فالمسألة تتجاوز نطاق الأخلاق الى مختلف جوانب حياتنا اليومية وتؤثر أيا تأثير على مستقبلنا.

وهذا هو ما يوضحه د.جمال عبد الجواد - الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ورئيس وحدة العلاقات الدولية - فى هذا الكتيب مركزاً على تقديم نماذج مختلفة

للتسامح والتعصب وما يؤدى إليه الأول من ازدهار والثانى من انحدار .

ويتميز هذا الاقتراب من الموضوع بأنه يعبر عن المعنى المقصود بوضوح وسلاسة يغنيان عن التأصيل النظرى لمفهوم التسامح. فبالإمكان تسطير عشرات الصفحات فى تبيان المناقب النظرية للتسامح. ولكن الأهم هو أن يصل هذا المفهوم، وكذلك مقابله ممثلا فى التعصب، الى شبابنا من خلال تجارب وخبرات ودروس معاصرة .

كما أن التسامح هو موقف أكثر منه مفهوم نظرى. فالمفهوم جديد لم يظهر إلا فى القرن السادس عشر فى مواجهة الحروب الدينية الدموية التى شهدتها أوروبا بين الكاثوليك والبروتوتستانت وراح ضحيتها آلاف الأبرياء. أما التسامح كموقف فهو قديم. والتسامح كلفظ موجود فى معظم اللغات بما فى ذلك اللغة العربية اشتقاقا من المصدر (سمح) أى قبل عن طيب خاطر أمراً قد لا يروق له.

ويجد القارئ فى هذا الكتيب عرضا واضحا مبسطا يتيح له استيعاب مناقب التسامح ومآسى التعصب. وإننا إذ نقدم هذا العدد من الموسوعة، نأمل فى أن لا يمضى وقت طويل حتى يكون التسامح قد انتشر فى ثقافتنا وسلوكنا وسائر مظاهر حياتنا.

د. وحيد عبد المجيد

مقدمة : فى اختلاف البشر

اختلاف البشر فيما بينهم حقيقة لا تخفى على أحد. فالكبير والصغير، والعالم والجاهل، والرجل والمرأة.. كلهم يعرفون أن أيا منا لا يعيش في العالم بمفرده، وأن أي جماعة منا تشارك خيرات هذا العالم وضوائقه مع عشرات بل مئات وآلاف الجماعات الأخرى. وحتى من منا لم يبرح قريته أو مدينته الصغيرة، فإنه يقرأ أو يرى على الشاشة الصغيرة كلاما وصورا عن بشر آخرين قد يعيشون قريبا منا جيرانا لنا، أو قد يعيشون في بلد آخر أو قارة أخرى.

والاختلاف أنواع، فهناك بشر يختلفون عنا في لون البشرة وملامح الوجه والجسم، وهناك بشر يتحدثون لغة غير التي نتحدث بها. وأغلب البشر لهم عادات وتقاليد تختلف عن عاداتنا، كما أن هناك بشرا يرضون لنفسهم دينا غير ديننا، وهناك بشر يتفقون معنا في كل هذا ولكنهم يختلفون عنا في

النسب إلى قبيلة تختلف عن قبيلتنا، إذا كان الفرد منا ينتمي إلى قبيلة أصلا.

ولأن الإنسان عدو ما يجهل، فإن الإنسان قد تعود في الماضي على النظر بشك وريبة إلى أي إنسان آخر، **ولنسمه اختصارا بالآخر**، مادام مختلفا عنه في كل أو بعض السمات. وفي مرات كثيرة تحول الشك والريبة إلى صراعات وحروب بين الجماعات الثقافية المختلفة. ربما كان السبب الأصلي البعيد لمثل تلك الصراعات والحروب هو تنافس الجماعات والشعوب المختلفة على أسباب الحياة ومصادر الرزق. ففي الأقاليم الصحراوية مثلا، كان تنافس قبائل الرعاة على المرعى ومصادر الماء سببا في الحروب فيما بينها. كما كان سعي الشعوب الرعوية، التي عانت من الحرمان الناتج عن نقص الموارد في الصحراء الشاسعة للحصول على الموارد الأوفر المتاحة للشعوب الزراعية، سببا في صراعات وحروب متكررة بين الشعوب الرعوية والزراعية.

غير أن الصراع على الموارد بين الجماعات المختلفة تحول مع مرور الوقت إلى صراع من نوع آخر. فعندما يتقاتل الأفراد والجماعات يسقط ضحايا وترتكب مظالم كثيرة، وتتكون لدى الناس على جانبي الصراع خبرات سلبية ومرارات تجاه بعضهم البعض. ولأن كل طرف في أي صراع يرى الحق غالبا في جانبه، فإنه بالضرورة يرى الخطأ، كل الخطأ، على الجانب الآخر من الصراع.

والناس عادة لا يقفون في تشخيصهم للصراعات التي يكونون طرفا فيها عند تحديد من المخطئ ومن المصيب،

فإجابة هذا السؤال تكون واضحة لدى الجميع، أو هكذا يظنـــون. ولكنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، إلـــى محاولـــة فـــهم أســـباب الصراع. ويميل الناس عادة إلى إرجاع الصراعات، خاصة تلك التي يكونون طرفا فيها، إلى صفات لصيقة بالخصم، أو بـــالآخر فردا كان أو جماعة. فالآخر ينازعنا حقوقنا لأنه إما طمـــاع أو حقود أو محب للسيطرة. أما نحن بالمقابل فإننا نمثل قيم العدالـــة وحب الخير والتعاون التي يجب أن تسود في النهاية. ويتناســـب هذا مع ما تسببه الصراعات من الام ومعاناة، وما يرتبط بذلـــك من الشحن العاطفي الجـــارف، بحيـــث تقـــل قـــدرة الأفـــراد والجماعات على رؤية الواقع كما هو، فيلقون عليه ظلالاً كثيفـــة مما يعتمل في نفوسهم من حب وكراهية وأفراح وأحزان.

غير أن الآخر قد يشاركنا أحيانا في كل شيء، فلونـــه مثـــل لوننا، ولغته هي لغتنا، ودينه هو نفس ديننا، ولكننا مع ذلك قـــد نعتبره آخر لأنه يحمل آراء تختلف عن آرائنا. فمن الناس مـــن يفضل نظاما اقتصاديا يقوم علـــى تدخـــل الدولـــة فـــي ملكيـــة المؤسسات الاقتصادية وإدارتها، ومنهم من يفضل نظاما تلعـــب فيه مبادرات الأفراد والقطاع الخاص الـــدور الرئيســـي. ومـــن الناس من يفضل نظاما سياسيا يقوم على إتاحة الحرية للجميـــع بشكل متساوٍ، ومنهم من يرى في ذلك طريقا للفوضى وتفتيـــت وحدة الجماعة، ويرى أنه من الأفضل إعطاء قلة متميزة حـــق التفكير والتقرير نيابة عن الجماعة. ومن الناس مـــن يـــرى أن القوة والصراع هي الطريقة الوحيدة لإدارة علاقاتنا مـــع الأمـــم والشعوب الأخرى، ومنهم من يرى أن هنـــاك مجـــالا واســـعا للتعاون بين الشعوب والدول.

ولنا أن نتخيل كم هو هائل عدد القضايا التي يمكن للناس أن يختلفوا عليها، وعدد المواقف التي يمكن لهم أن يتخذوها إزاء هذه القضايا، فنجد أنفسنا أمام عدد لانهائي من المواقف والآراء المختلفة.

وطوال القسم الأكبر من التاريخ البشري كان خلاف الآراء سببا لصراعات عنيفة. وبينما نجحت بعض الأمم مؤخرا في تنظيم تنوع الآراء واختلافها بطريقة سلمية، من خلال تطوير قيمة التسامح تجاه هذا الاختلاف، فإن بعضها الآخر مازال بعيدا عن تحقيق ذلك، ومازال يتعامل مع الاختلاف في الرأي بنفس الطريقة التي كان يتبعها أسلافه قبل عدة قرون.

نحن إذن إزاء شكلين من أشكال التنوع، الأول بين الجماعات على أساس اختلافهم في اللون أو الثقافة أو الدين، والثاني بين الأفراد بسبب اختلاف وتنوع آرائهم. وطوال التاريخ كانت الأمم تنجح في التعامل مع أشكال التنوع المختلفة الموجودة داخلها بقدر تحلي أبنائها بفضيلة التسامح. وحول النوع الأول من هذه الاختلافات وحول التسامح كأسلوب وطريقة للتعامل معه يدور هذا الكتاب.

الفصل الأول

التنوع البشرى

في الثاني والعشرين من أغسطس عام ١٩٩٩ بلغ عدد سكان كوكب الأرض ستة مليارات نسمة. ويتوزع هؤلاء على ١٨٩ دولة هم أعضاء الأمم المتحدة، كما يتوزعون على عدد هائل من الجماعات القومية واللغوية والدينية والعرقية، واختصارا فإن علماء الاجتماع يطلقون على أي جماعة تتحدد هويتها على أساس اشتراك أبنائها في صفة موروثة معينة مثل الدين أو العرق أو الثقافة أو اللغة <u>جماعة إثنية</u>، وهو المصطلح الذي يترجم بالعربية إلى <u>جماعة أولية</u>، والمقصود أنها جماعة تقوم على أول ما يصادفه الإنسان في الحياة، سواء لونه وسمات وجهه وجسده التي يولد بها، أو الدين والثقافة واللغة التي يصادفها أول ما يصادف في محيط الأسرة.

ووفقا لبعض الدارسين، فإن الستة مليارات نسمة الذين يسكنون العالم ينقسمون إلى حوالي ستة آلاف جماعة أولية. وبينما لا يزيد عدد بعض أعضاء هذه الجماعات عن عدد سكان قرية صغيرة، فإن بعضها الآخر يتكون من ملايين البشر. ويرى بعض الباحثين أنه من غير المفيد إدراج كل جماعة صغيرة لا يتجاوز عدد أعضائها عن عدد محدود من الأفراد في هذه القائمة، خاصة وأن أغلب هذه الجماعات ليس لها سوى وزن هامشي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في

البلاد التي تعيش فيها، وأنه من الأفضل بالمقابل أن يتم التركيز على الجماعات الكبيرة من حيث العدد والنفوذ والأهمية. وقد أحصى هؤلاء العلماء ٥٧٥ جماعة أولية كبيرة موجودة في عالم اليوم.

ومن الممكن أن يتضح لنا كم هو مذهل مدى التنوع الموجود في العالم إذا نظرنا إلى عدد اللغات المعروفة في العالم، باعتبار أن اللغة تعد أبرز ما يميز الجماعات المختلفة عن بعضها. ففي عالم اليوم يوجد حوالي ستة آلاف لغة، وأكبر هذه اللغات من حيث عدد المتحدثين بها هي لغة المندارين، وهي اللغة المعروفة باللغة الصينية، ويبلغ عدد المتحدثين بهذه اللغة أكثر من مليار نسمة. تأتي بعد ذلك اللغة الإنجليزية كثاني أكبر لغة في العالم، حيث يتحدث بها حوالي ٥٠٠ مليون نسمة، وهو عدد أقل بكثير من عدد المتحدثين باللغة الصينية. ومع هذا فإنه علينا أن نلاحظ أن أكثر من ربع سكان العالم في مختلف البلاد والقارات يمكنهم فهم اللغة الإنجليزية، الأمر الذي يجعل هذه اللغة أكثر لغات العالم انتشارا، حتى لو كان عدد محدود فقط من الناس يتحدثونها باعتبارها لغتهم الأم. ويمكن التعرف على أوسع اللغات انتشارا في العالم من النظر إلى الجدول رقم(١).

جدول رقم (١)
اللغات/الثقافات الكبرى في العالم

اللغة	إجمالي عدد المتحدثين (بالمليون)
المندارين (الصينية)	١٠٢٥
الإنجليزية	٤٩٧
الهندية	٤٧٦
الإسبانية	٤٠٩
الروسية	٢٧٩
العربية	٢٣٥
البنغالية (في الهند وبنجلاديش)	٢٠٧
البرتغالية	١٨٧
الماليزية الإندونيسية	١٧٠
الفرنسية	١٢٧

وفي مقابل الجماعات اللغوية الكبرى في العالم، فإن الأغلبية من اللغات الموجودة في عالم اليوم تكاد تكون لغات مجهولة، بل إن العديد من اللغات التي تتحدث بها جماعات صغيرة العدد باتت معرضة للانقراض، إذ يقدر الخبراء أن الأطفال المولودين لآباء يتحدثون واحدة من بين أكثر من نصف عدد اللغات الموجودة في العالم، لم يعودوا يتحدثون لغة آبائهم. كما أن عدد المتحدثين بحوالي ٢٠٠٠ من اللغات الموجودة في العالم أصبحوا لا يزيدون عن ١٠٠٠ فرد. وتعد لغات السكان

الأصليين في استراليا وأمريكا هي أكثر اللغات تعرضا للتــهديد. ففي استراليا على سبيل المثال، يتحـــدث السكان الأصليــون حوالي ٢٠٠ لغة، غير أن عدد المتحدثين بحوالي مائة من هــذه اللغات لا يزيد عن عشرة أفراد، نعم عشرة أفراد فقط. بــل إن حوالي الخمسة وعشرين من بين هذه اللغــات لا يتحـدث بــها سوى فرد واحد من كبار السن الذين مازالوا على قيد الحياة.

وبغض النظر عن كــل هــذه التفصيــلات، فــإن الحقيقــة الواضحة هي أن سكان العالم ينقسمون إلى عـــدد كبــير مــن الجماعات الأولية، وأن عدد هذه الجماعات يفوق بكثـــير عــدد الدول الموجودة في العالم، بحيث أنه يمكن أن نستنتج بثقـــة أن أغلب دول ومجتمعات العالم هي من نوع <u>المجتمعات التعدديــة</u> أى تلك التي تعيش فيها جنبا إلى جنب جماعات أوليــة مختلفــة متنوعة ومتعددة.

كما هو واضح، إذاً، فإن عدد الجماعات القوميـــة والدينيــة والعرقية يبلغ عدة أضعاف عدد الدول الموجــودة فــي العــالم. فالتنوع في خصائص البشر لا يقتصر على ذلك الحادث علـــى مستوى الكون، ولكننا نجده في داخل الدول نفســها. فالعــالم لا يعرف سوى عدد محدود من الدول التي تتسم بتجانس ســكاني كامل، أما أغلب دول العالم فإنها تتميز بتنوع سكانها إلى عــدد من الجماعات الأولية، حتى أن حوالي المليار نسمة، أي حوالــي سدس سكان العالم، هم عبارة عن أقليات عرقيـــة أو دينيــة أو ثقافية تعيش في مجتمعات ينتمي أغلب أبنائها إلى جماعة أوليــة مختلفة عن الأغلبية من السكان .

وقد يبلغ التنوع والتعدد في مجتمع من المجتمعات ذروته، حتى لا تكاد تستطيع أن تطلق على أي جماعة تعيش فيه صفة الأغلبية، في الوقت الذي لا يتسم فيه المجتمع بما يكاد يكون تماثلا وتجانسا تاما سوى في عدد قليل جدا من المجتمعات. أما في أغلب المجتمعات فإن الحالة السائدة فيها هي صورة مجتمع تسوده أغلبية واضحة إلى جانب أقلية واحدة أو عدد محدود من الأقليات.

ويبلغ التنوع أقصاه في حالة بعض الدول مثل الهند التي وصل عدد سكانها في العام ٢٠٠٠ مليار نسمة، فهي ثاني أكبر بلد في العالم من حيث عدد السكان بعد الصين. فأبناء الهند يتحدثون حوالي ١٥٠٠ لغة ولهجة. وبينما لا يزيد عدد المتحدثين ببعض هذه اللغات أو اللهجات عن عشرات ألوف قليلة، فإن المتحدثين ببعضها الآخر يبلغ عشرات الملايين من البشر. لهذا نجد الدستور الهندي يعترف بخمس عشرة لغة، باعتبار كل منها اللغة الرسمية السائدة في ولاية أو أكثر من ولايات الهند التي يبلغ عددها ٢٥ ولاية. هذه اللغات الخمس عشرة هي اللغات الأسامية والبنجالية والجوجاراتية والهندية والكانادية والكشميرية والمالايلام والماراسي والأوريا والبنجابية والسنسكريتية والسندية والتاميل والتيلوجو والأوردو. لا أظن أن أغلبنا سمع بأغلب هذه اللغات، ومع هذا فإن بضع عشرات من الملايين يتحدثون بكل منها، الأمر الذي لا يسمح بتجاهلها، بل إنه حتى لا يمكن تجاهل لغات أقل أهمية وانتشارا منها بكثير، حتى أن حزب المؤتمر، أقدم أحزاب الهند والذي حكم البلاد لأطول فترة منذ الاستقلال، يصدر مطبوعات بأكثر من

٥٠٠ لغة، حتى يمكنه الوصول بأفكاره إلى اوسع عدد ممكن من المواطنين الهنود.

لقد عاش العالم طوال الحقبة التي تلت الحرب العالمية الثانية وحتى تفكك الاتحاد السوفيتي السابق في عام ١٩٩١، في ظل نظام اتسم بتنافس دولتين كبيرتين -هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي- من أجل كسب القوة والنفوذ في العالم. وقد سُمي النظام الدولي في تلك الحقبة بنظام القطبية الثنائية لأن العامل الرئيسي الحاكم لطبيعة العلاقات الدولية وتطوراتها طوال تلك المرحلة كان هو التنافس بين القطبين الكبيرين، أو الدولتين العظميين، اللتين فاقت القوة المتاحة لكل منهما القوة المتاحة لأي دولة أخرى بمرات عديدة.

وهنا علينا أن نلاحظ أمرين: الأمر الأول هو أنه ليس من قبيل المصادفة أن كلتا الدولتين العظميين قامتا على مجتمعين تعدديين ، حيث قام المجتمع في كل منهما على التعايش بين عدد كبير من الشعوب والجماعات القومية والعرقية والدينية. فقد تكون الاتحاد السوفيتي السابق من ست عشرة جمهورية، مثلت كل منها قومية قائمة بذاتها. وفي داخل أغلب هذه الجمهوريات كان يوجد إلى جانب القومية المهيمنة عدد آخر من القوميات والجماعات الأولية الأصغر عددا. ومع أن القومية الروسية كانت هي الغالبة في الاتحاد السوفيتي، فإن نسبة أبناء القومية الروسية لمجموع سكان الاتحاد السوفيتي لم تزد عن ٥٣%، بينما مثلت شعوب أوكرانيا وأوزبكستان وكازاخستان وروسيا البيضاء أكبر الأقليات، تلتها في ذلك شعوب أذربيجان وجورجيا وطاجيكستان ومولدوفا وقرجيزستان وأرمينيا،

بالإضافة إلى عدد كبير من الأقليات الصغيرة جدا من الشعوب التتارية مثل الشيشان والأنجوش واليهود والبولنديين والألمان.

وبالرغم من الاختلاف الكبير بين الأوضاع في الولايات المتحدة ومثيلتها في الاتحاد السوفيتي، إلا أن أحد أهم عناصر التشابه بين البلدين هو التعددية العرقية والثقافية فيهما. فالجسد الرئيسي للمجتمع الأمريكي يتكون من الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء من ذوي الأصول الأوروبية، والذين تبلغ نسبتهم حوالي ٧٥% من مجموع السكان. وإلى جانب هؤلاء يوجد أقليات كبيرة، أهمها الأقلية السوداء التي تبلغ نسبتها ١٢,١%، والأمريكيين من مهاجري أمريكا الجنوبية المتحدثين باللغة الأسبانية، والذين تبلغ نسبتهم ٩% من السكان، والآسيويين بنسبة ٢,٩%، وأخيرا السكان الأصليين من الهنود والإسكيمو بنسبة ٠,٨%، أما القسم الصغير الباقي فيتوزع بين سكان ترجع أصولهم إلى مناطق مختلفة من العالم.

وفي داخل كل جماعة توجد انقسامات فرعية إضافية، خاصة في أوساط الأمريكيين من ذوي الأصل الأوروبي والآسيويين. فبين البيض الأمريكيين، تتمتع جماعات أولية معينة بدرجة أعلى من التماسك والتعبير عن الذات والحضور في الحياة الثقافية والسياسية، وأهم هذه الفئات الأولية هي الأمريكيين من أصول أيرلندية وإيطالية ويونانية. بينما ينقسم الآسيويون على أساس الموطن الأصلي، فنجد الصينيين والكوريين واليابانيين.

أما من الناحية الدينية، فإننا نجد البيض الأمريكيين ينقسمون إلى أغلبية تتبع المذهب البروتستانتي، وتبلغ نسبتها ٦١% من

مجموع السكان، يليهم الكاثوليك الذيـــن تبلــغ نســبتهم ٢٥%، واليهود بنسبة ٢%. أما النسبة الباقية فتتوزع بين ٧% من غــير المؤمنين بأي ديانة، و٥% أخرى تضم أتباع عــدد كبــير مــن الديانات الأصغر عددا، منها الإسلام والبوذية والهندوسية.

ويوجد في العالم العربي أمثلة كثيرة لمجتمعــات تعدديــة يتنوع فيها السكان على أساس الانتماء الثقافي والعرقي والدينـي. ففي العراق ذى الثلاث وعشرين مليون نسمة، ينقســم الســكان بين عرب يمثلون ٨٠% من السكان، وأكراد يمثلون ١٥% مــن السكان، بينما تتوزع الخمسة بالمائة الباقية بين جماعات قوميــة صغيرة مثل التركمان والسريان والآشور. أما من حيث الديانــة، فنجد الشيعة يمثلون حوالي ٦٠% من السكان، بينما يمثل أهــل السنة حوالي ٣٧% من مجموع العراقيين، وتتوزع الثلاثة فــي المائة الباقية بين المســيحية وديانــات أصغــر مثــل الزيديــة والصابئة. وكما هو واضح من هذه البيانات، فإن أكراد العــرق، يشاركون قسما من عرب العراق في إتباع المذهب السني، فــي الوقت الذي يمثل فيه الشيعة الجماعة الدينية الأكبر بيــن أهــل العراق المتحدثين بالعربية.

ويوجد في لبنان مثال آخر للتنوع البشري. فمن بين ســكان لبنان البالغ عددهم ٣,٥ مليون نسمة، يوجد ٩٥% من العــرب، و ٤% من الأرمن، أما النسبة الباقية فتتوزع علــى عــدد مــن الفئات صغيرة العدد. ومن الناحية الدينية ينقسم لبنان إلــى ٦٠% من المسلمين، الذين تزيد نسبة المســلمين الشــيعة فيــهم عــن ٦٠%، و ٤٠% من المسيحيين الذيــن يتوزعــون علــى ١٧ طائفة، أكبرها هي الطائفة المارونية.

وفي الجوار القريب جدا يوجد نموذج، وإن كان مصغرا للحالة الهندية. ففي السودان الذي لا يزيد عدد سكانه عن الخمسة وثلاثين مليون نسمة، يوجد العشرات من الجماعات الأولية. وبينما يظن الكثير من الناس أن الانقسامات في السودان تقتصر على الانقسام بين الشمال العربي المسلم، والجنوب الأفريقي المسيحي، فإنه لا يوجد شيء أبعد عن الحقيقة من هذه الصورة التبسيطية. فمن الناحية العرقية، يتنازع السودان السلالات الزنجية من الجنوب والسلالات القوقازية من الشمال، ويعتبر خط العرض ١٢ درجة هو الحد التقريبي الفاصل بين الجماعتين، ومع هذا فإن علينا أن نلاحظ أن هذا التقسيم هو مجرد تقسيم تقريبي لتبسيط الصورة. فبعض القبائل غير الزنجية - مثل قبائل البقارة التي تعيش في غرب السودان- تعيش جنوب هذا الخط، كما أن أكثر من مليونين من الجنوبيين الزنوج قد هاجروا إلى شمال خط العرض ١٢، وتركز القسم الأكبر منهم في العاصمة الخرطوم وحولها.

و داخل كل من هاتين المجموعتين الكبيرتين يوجد مئات من الجماعات الفرعية. فالعرب هم الفئة الأكبر بين السودانيين من السلالات القوقازية، وينقسم هؤلاء بدورهم إلى عدة قبائل، أهمها قبائل الجعليين، التي تتركز في شمال الخرطوم، وتضم قبائل الجوابرة والبديرية والشايقية والبطاين والجوامعة. وهناك أيضا قبائل الجهنيين، والتي تضم قبائل الحوازمة والعبدلاب والشرية والزريقات والحبانية والحمر والتعايشة والكبابيش. وتنقسم كل قبيلة من هؤلاء بدورها إلى قبائل أصغر وإلى بطون وبدنات ربما تتصارع أحيانا فيما بينها.

أما في جنوب السودان فإن الواقع القبلي أكثر تنوعا ورسوخا، وفيه يوجد العدد الأكبر من القبائل السودانية، حيث أن القبيلة هناك تضم عددا أقل من الناس. ويوجد في جنوب السودان ثلاث مجموعات قبلية هي القبائل النيلية، وأهمها الدنكا والنوير والشلك. والقبائل النيلية الحامية، وأهمها الباري والمندراي والنيانجيار ولولابا. وأخيرا مجموعة القبائل السودانية، وأهمها قبيلة الزاندي.

وبالإضافة إلى قبائل شمال وجنوب السودان، توجد قبائل شرق السودان، التي تسمى قبائل البجة، وهي قبائل غير زنجية ولكنها غير عربية أيضا وإن كانت تدين بالإسلام. وتضم البجة قبائل عدة منها البشاريين والأمرار والهدندوة وبني عامر. أما في غرب السودان، فتوجد قبائل غير زنجية وغير عربية، أهمها قبائل الفور والمساليت والزغاوة والمسبعات، بالإضافة إلى النوباويين الذين يعيشون في جبال النوبا في غرب السودان.

ومن الناحية الدينية، يدين حوالي ٧٥% من السودانيين بالإسلام، بينما يدين ٢٠% منهم بديانات أفريقية محلية، بالإضافة إلى ٥% من المسيحيين. وينقسم مسلمو السودان إلى عدد من الطوائف. والطائفة في السودان هي شيء شبيه بالطريقة الصوفية، ولكنها تتمتع بتنظيم أكثر إحكاما، حتى أن الأحزاب السياسية الكبيرة في السودان - مثل حزب الأمة والحزب الاتحادي - هما في الحقيقة حزبا طائفتى الأنصار والختمية. وأهم الطوائف السودانية هي طائفة الأنصار -والتي تسمى أيضا الطائفة المهدية- والطائفة الختمية، بالإضافة إلى طوائف مثل القادرية والسمانية والمجذوبية والإدريسية

والإسماعيلية والهندية. وعادة ما تجمع الطائفة في عضويتها قبائل عدة. ومن المألوف أن نجد عضوية نفس الطائفة تجمع بين قبائل تنتمي لجماعات عرقية تتحدث لغات مختلفة. فطائفة الأنصار تضم بالإضافة إلى بعض القبائل العربية، الكثير من قبائل غرب السودان غير العربية. كما تضم الطائفة الختمية، أيضا بالإضافة إلى بعض القبائل العربية، الكثير من قبائل شرق السودان...وهكذا.

وعموما فإن متحدثي العربية في السودان لا يزيدون عن ٤٠% من مجموع السكان، بينما يتحدث الباقون لغات محلية متنوعة، أي أن أقل قليلا من نصف مسلمي السودان هم من غير المتحدثين بالعربية. وإن كان أغلب السودانيين يستطيعون التفاهم بلهجة عربية خاصة، أي أن العربية تظل هي أكثر لغات السودان انتشارا.

فالمواطن السوداني العادي ينتمي لقبيلة معينة، والقبيلة بدورها هي عضو في طائفة جنبا إلى جنب مع قبائل أخرى، وبعض هذه القبائل يتحدث العربية بينما لا يتحدثها البعض الآخر. ويزيد تعقيد هذه الصورة إذا اتجهنا نحو الجنوب، حيث نجد نسبة المسلمين بين السكان لا تزيد عن ١٧% من السكان، إلى جانب نسبة مماثلة من أتباع طوائف مسيحية مختلفة. أما الأغلبية العظمى من سكان الجنوب فتضم أتباعا لديانات محلية. أكثر من هذا، ولأن الجنوب كان طوال القرنين الماضيين ساحة مفتوحة للتبشير والدعوة الدينية لكل من الإسلام والمسيحية، فإنه من غير المستغرب في الجنوب أن ينتمي

أخـــان شقيقان إلى ديانتين مختلفتين، وهو أمر مقبول ولا يثـــير أي قدر من الحساسية هناك.

ربما كان الحديث المفصل عـــن الانقســـامات الأوليـــة فـــي السودان مملا بعض الشيء، ولكني أظنه كان ضروريا لتوضيح التعقيد الشديد الذي يمكن أن نجـــده فـــي بعـــض المجتمعـــات. والخلاصة هي أن التنوع وانقسام المجتمعات بيـــن عـــدد مـــن الجماعات القومية والعرقية الدينية هو ظاهرة أصيلة في تكويـــن أغلب المجتمعات الإنسانية، وأن هذا بالتالي هو الوضع الطبيعي للمجتمع الإنساني، ومن ثم فإنه مـــن الخطـــأ اعتبـــار الحالـــة الطبيعية للمجتمع هي تلك الحالة التي لا يوجد فيها في المجتمـــع سوى جماعة أولية واحدة.

وبينما تتراجع في العالم أجمع أهمية الانقسامات العرقية التي تميز بين الناس على أساس اللون وملامـــح الجســـد والوجـــه، تزايدت أهمية التمييز بين الناس علـــى أســـاس اللغـــة والديـــن والعادات والتقاليد التي تكونت بســـبب الاشـــتراك فـــي خـــبرة تاريخية معينة. ولنتفق على أن نجمع كل هذه الاختلافات تحـــت عنوان الاختلافات الثقافية التي تبين أحداث العقد الأخـــير أنـــها مازالت ذات أهمية وخطورة كبيرة.

ومن الخطأ التعامل مع الثقافة باعتبارها شيئا جامدا معـــزولا غير قابل للتغير، إذ أن كل الثقافـــات تتغـــير بمـــرور الزمـــن، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في التغـــيرات التـــي لحقـــت ببعـــض مظاهر الثقافة المصرية ذاتها، فالثقافة المصرية فـــي مطلـــع القرن الحادي والعشرين تختلف عما كانت عليه في بداية القـــرن السابق، فمصريو اليوم لم يعودوا يلبسون الطرابيش، وأصبح مـــا

كان يسمى بالملابس الأفرنجية هو الملبس اليومي لأغلب المصريين. ولم تعد المرأة المصرية تضع النقاب على وجهها إلا نادرا، وأصبح تعليم المرأة وحصولها على وظيفة خارج المنزل أمرا شائعا. وبينما كانت الفتاة المتعلمة في مصر حتى الستينيات من القرن العشرين تحرص على ارتداء الملابس الغربية، بما فيها الميني جيب وملابس البحر الأوروبية أثناء قضاء عطلة الصيف على الشاطئ، فإن المرأة المصرية في سنوات الثمانينيات كانت أكثر محافظة واحتشاما. أما في مطلع القرن الحادي والعشرين، فإننا نجد الاتجاهين المحافظ والمتحرر من التقاليد يتعايشان جنبا إلى جنب، ليساهما معا في إكساب الثقافة المصرية طعما خاصا لا تستطيع أن تجده في أي من دول المنطقة المحيطة بنا.

وباختصار، فإنه لا توجد ثقافة ساكنة لا تتطور، كما لا توجد ثقافة منعزلة عن الثقافات الأخرى. فالثقافات المختلفة هي في حالة تفاعل دائم، وقد أدت الثورة في وسائل المواصلات والاتصالات إلى زيادة هذا التفاعل. ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة في المجتمع المصري. فقد عاد المصريون الذين ذهبوا للعمل في المملكة السعودية وبلاد الخليج بعادات وتقاليد أثرت بعمق على الثقافة المصرية، في نفس الوقت الذي ترك فيه المصريون الذين أتيحت لهم الفرصة لقضاء بعض الوقت في أوروبا وأمريكا بصمات واضحة على الثقافة المصرية، وبحيث أصبحت الثقافة المصرية السائدة محصلة لتفاعل القيم الثقافية المصرية الأصيلة مع التأثيرات القادمة من الشرق والغرب، وإن بدرجات متفاوتة.

ويمكن الخروج من المناقشة السابقة باستنتاجين أساسيين: الاستنتاج الأول هو أن الثقافة التي مازالت تستخدم في كثير من المجتمعات للتمييز بين الجماعات البشرية، هي في الحقيقة كيان متغير، وبالتالي فإنه لا يوجد مبرر كاف لاعتبارها أساسا للتمييز بين البشر. بل إن الاعتقاد الخاطئ بوجود سمات ثقافية جامدة يمكن تمييز البشر على أساسها، يؤدي في الحقيقة إلى فقدان القدرة على ملاحظة التغيرات التي تحدث للثقافات المختلفة، فيظل تصورنا لها خاطئا وقاصرا.

أما الاستنتاج الثاني، فهو أن كل ثقافة هي في الحقيقة محصلة للتفاعل مع ثقافات أخرى، بحيث يصعب إقامة خطوط فاصلة تعزل بين كل ثقافة وأخرى. لا يعني هذا القول غياب أي معنى للخصوصية الثقافية، وإنما يعني أن الخصوصية الثقافية لكل جماعة هي قيمة نسبية، وأن أشكال التشابه بين الثقافات هي في الحقيقة أكثر مما يبدو على السطح، ومما يظن كثير من الناس. أما ما يمنع الناس من ملاحظة هذا التشابه فهو نظام التنشئة الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تجعل الناس أكثر استعدادا لملاحظة الفروق بين الثقافات والتركيز عليها، أكثر من استعدادهم لملاحظة أشكال التشابه والقيم المشتركة بينها.

الفصل الثانى

عندما يكون التنوع نعمة

لنا الآن أن نتخيل كم سيكون العالم وحشيا وقاسيا إذا انغلقت كل دولة أو كل جماعة قومية أو دينية أو كل قبيلة على نفسها وقررت أن تتعامل مع الآخرين باعتبارهم أعداء يجب محاربتهم لمجرد كونهم مختلفين؟ الأرجح أن العالم سيصبح في مثل هذه الحالة غابة كبيرة يحارب فيها الجميع ضد الجميع، فتتحارب الدول مع الدول، كما تتحارب في داخل كل دولة كل جماعة مع كل جماعة أخرى، بكل ما للحرب من آثار مدمرة على حياة البشر والمجتمعات وعلى تهديد إمكانات الازدهار والرخاء الاجتماعي والفردي.

ولحسن الحظ أن البشرية قد اكتشفت منذ فترة ليست قصيرة فائدة التعاون بين الجماعات المختلفة، وبالتالي فإنها عرفت فائدة التنوع والتعدد. ويمكن أن نجد أثرا لهذا الاتجاه في مجال العلاقات بين الدول، كما يمكن أن نجده في مجال العلاقات بين الجماعات المختلفة في داخل الدولة.

١ - أوروبا من التعصب الي التسامح :

لعل الاتحاد الأوروبى هو أشهر مثال لإمكانية تحويل العلاقات بين الدول من الصراع والعداء إلى التعاون المبني على احترام التعدد وقبول الآخر. فلعدة قرون اتسمت العلاقات بين الدول الأوروبية بالتنافس الحاد الذي وصل عدة مرات إلى

مستوى الحرب. ودون حاجة للرجوع إلى تاريخ أوروبا القديم الذي شهد العشرات من الحروب التي راح ضحيتها الملايين من البشر، فإن تاريخ أوروبا في القرن العشرين شهد حربين أوروبيتين كبيرتين، سميتا بشكل غير دقيق بالحربين العالميتين الأولى والثانية. فقد بدأت الحرب في المرتين داخل أوروبا، وكانت أطرافها الرئيسية أطرافا أوروبية، واستمرتا هكذا لوقت طويل، ولم تتورط القوى غير الأوروبية - خاصة الولايات المتحدة- فيهما إلا في مرحلة متأخرة. صحيح أن ساحة القتال شملت بلادا ومناطق خارج القارة الأوروبية، إلا أن ذلك لا ينفي عن الحرب صفتها الأوروبية بحكم طبيعة أطرافها وأهدافهم، التي كانت تتركز في الصراع على النفوذ داخل أوروبا ذاتها.

لقد بلغت الحرب العالمية الأولى مستوى غير مسبوق من القسوة والعنف، حتى أنها أسفرت عن مقتل ٨,٥ مليون جندي، وجرح ١٥,٥ مليون جندي آخر. أما بين المدنيين، فقد بلغ مجموع عدد القتلى والجرحى أكثر من ١٧ مليونا. وقد مات بعض من هؤلاء عن طريق الإصابة بالغازات السامة التي تم استخدامها في هذه الحرب لأول مرة.

أما الحرب العالمية الثانية فقد تفوقت على سابقتها من حيث عدد الضحايا. فقد سقط من بين الجنود في هذه الحرب ١٥ مليونا من القتلى و٢٦,٥ مليون من الجرحى. أما بين المدنيين، فقد بلغ عدد القتلى ٢٥ مليونا، بينما تجاوز عدد الجرحى أربعين مليونا. وقد مات بعض من هؤلاء بسبب تعرضهم للقصف بالأسلحة النووية التي تم استخدامها في هذه الحرب

لأول مرة، ففي السادس من أغسطس عام ١٩٤٥ قامت الولايات المتحدة بإسقاط أول قنبلة نووية في التاريخ على مدينة هيروشيما اليابانية، فقتلت على الفور ٩٢ ألفا من سكان المدينة البالغ عدد سكانها ٢٣٠ ألفا، أي أن ٤٠% من سكان هيروشيما فقدوا حياتهم بقنبلة واحدة، بينما تعرض للتشويه أكثر من ١٠٠ ألف آخرين من سكان المدينة، التي تحولت تماما إلى حطام، بسبب قوة الانفجار ودرجة الحرارة المرعبة التي أدت إلى انصهار كل الأجسام المعدنية بالمدينة، بما في ذلك الكباري.

ولنا أن نتصور حجم الضحايا والدمار إذا استمرت البشرية على تعصبها وضيق أفقها، وفشلت في تعلم أي شيء من خبراتها، وقررت خوض حرب عالمية ثالثة في ظل التزايد المخيف في الطاقة التدميرية للأسلحة المختلفة وتحسين دقة تصويبها وتطوير أنواع وأجيال جديدة من أسلحة الدمار الشامل. ولتجنب هذا المصير الكارثي المؤلم، لم يكن أمام أبناء وقادة القارة الأوروبية سوى التعامل بطريقة مختلفة تماما مع مشكلة العلاقات بين الدول الأوروبية، فكان إحلال التعاون محل الصراع هو الحل، وكان تأسيس الاتحاد الأوروبي هو نتيجة هذه المسيرة.

بدأت مسيرة الاتحاد الأوروبي في عام ١٩٥١، في شكل المنظمة الأوروبية للفحم والصلب، التي ضمت في عضويتها ست دول هي فرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرج، وهي نفس الدول التي سبق لها أن خاضت ضد بعضها حربين عالميتين. وكانت مشاركة فرنسا وألمانيا في

بناء هذا التجمع واحدة من أهم ما أبدعته أوروبا من أساليب حل الصراع، بعد أن سئمت الحروب وما تخلفه من دمار. فقد كان التنافس بين هذين البلدين، وسعي كل منهما للفوز بمكانة الدولة الأكبر في أوروبا سببا في أهم الحروب التي خاضتها دول القارة. فبدلا من أن يظل النمو الاقتصادي، خاصة في صناعات الفحم والصلب وثيقة الصلة بالاستخدامات العسكرية، في أي من البلدان الأوروبية سببا في شعور الدول الأوروبية الأخرى بالتهديد لما قد يترتب عليه من إخلال بميزان القوى العسكري بين دول أوروبا، فإن النمو في أي من البلدان الأوروبية أصبح يمثل مصلحة مشتركة يستفيد منها الجميع، بحيث أصبح تحسن الأحوال الاقتصادية في إحدى البلدان الأوروبية يمثل قوة دفع لتحسن الأحوال الاقتصادية في البلاد الأوروبية الأخرى.

ومنذ ذلك اليوم لم تتوقف مسيرة تقدم التكامل الأوروبي، ففي عام ١٩٥٨ تحولت منظمة الصلب والفحم إلى الجماعة الاقتصادية الأوروبية، التي استهدفت تحقيق التكامل الاقتصادي بين أعضاء الجماعة، كما تنوعت الأجهزة والمؤسسات التي تدير الكيان الناشئ، فتم إنشاء الجمعية الأوروبية كنواة للبرلمان الأوروبي، والمفوضية الأوروبية والمجلس الوزاري. ومنذ عام ١٩٦٧ تم دمج جميع هذه المؤسسات في كيان واحد هو الجماعة الاقتصادية الأوروبية. ومنذ عام ١٩٧٢ اتفقت الدول الأعضاء على عقد اجتماع دوري لوزراء خارجية الدول الأعضاء مرة كل ستة شهور، فتأسست آلية أوروبية لصنع القرارات والسياسات، وهي الآلية التي أثبتت فاعليتها في

صياغة مستقبل القارة الأوروبية. ومنذ عام ١٩٧٩ تـــم الأخــذ بأسلوب الانتخاب المباشر من جانب مواطني الـــدول أعضــاء الاتحاد لاختيار أعضاء البرلمان الأوروبى ، الأمر الـــذي أكــد الطبيعة الديمقراطية للاتحاد الأوروبي.

ومنذ عام ١٩٧٣ بدأت مسيرة توسيع الاتحـــاد الأوروبـــي، فانضم إليه في ذلك العام كل من بريطانيا وأيرلندا والدانمـــرك، واستمرت عضوية الاتحاد في الاتساع حتى وصلت الان إلـــى خمسة عشر عضوا، بعد أن انضم إلى عضويته كل من أســبانيا والبرتغال واليونان والنمسا والسويد وفنلندا، وهو العدد المرشـــح للتزايد بعد قرار الاتحاد الأوروبي بقبول عدد كبـــير مـــن دول الكتلة الشيوعية السابقة بالإضافة إلى تركيا وقـــبرص ومالطـــا كأعضاء مرشحين لعضوية الاتحاد الأوروبي.

وبكل المعايير فإن الاتحاد الأوروبي يعد الكيان الاقتصـــادي الأكبر في عالم اليوم، ففي عام ١٩٩٧ بلغـــت نســبة مســاهمة الاتحاد الأوروبي في الصادرات العالمية ٣٨,١٥%، بالمقارنـــة بنسبة ١٢,٤٦% للولايات المتحدة، و٧,٦١% لليابـــان، و٣,١% للصين. أما بالنسبة للواردات فقد بلغ نصيب الاتحاد الأوروبـــي منها ما نسبته ٣٨,٧%، بالمقارنة بنســـبة ١٦,٨٢% للولايـــات المتحدة، و٥% لليابان، و٢,٥% للصين.

٢ - التنوع كمصدر ثراء للحياة :

وتقوم الفكرة وراء اختيار التعاون كطريق لتحسين ظـــروف البشرية على الاعتقاد بأن كل فرد وكل جماعة بشرية لديها مـــا تساهم به في مسيرة التقدم الإنســـاني العريضـــة، وأن الإثـــراء

الناتج عن تبادل الثقافات والمعارف والأفكار والتقاليد يمكن أن يؤدي إلى تعظيم الفائدة العائدة على الجميع، كما أن من شأنه أن يجعل الحياة الإنسانية أكثر خصبا وإمتاعا وتشويقا. وليس من الصعب علينا أن نتخيل كم ستكون الحياة فقيرة ومملة ومحدودة لو أن البشر جميعا كانوا متشابهين: لهم نفس اللون والملامح، كما لهم نفس الثقافة، فيتحدثون نفس اللغة، ولهم نفس العادات والتقاليد.

وحتى بدون أن ندري ودون أن نفكر كثيرا في مزايا التنوع البشري، فإن كل منا يشعر بقيمة وفائدة التنوع، ويسعى لزيادة تمتعه بالحياة عن طريق التعرف على هذا التنوع، وربما تعلم كل منا أيضاً بعضا من ثقافات أقوام أخرى، والاستفادة منها في حياته اليومية. ويمثل هذا الإيمان الإنساني القوي بمزايا التنوع أحد الأسباب الرئيسية المحركة للسياحة العالمية. فالسياح الذين يتكبدون عناء السفر بين البلاد القريبة والبعيدة، ويتحملون في سبيل ذلك الجهد والمال، فإنهم عادة ما يكونوا مدفوعين بالرغبة للتعرف على حياة وتاريخ وثقافة شعوب أخرى. فمجرد رؤية أشكال مختلفة للحياة والمجتمع يمثل مصدرا للمتعة، وبالتأكيد فإنه يمثل مصدرا ثمينا للخبرة الإنسانية. وأظن أن كلا منا يدرك هذه القيمة. فخبرات البعض منا الذين كان لهم حظ السفر لخارج البلاد هي بالتأكيد أوسع من خبرات أقرانهم الذين لم تتح لهم هذه الفرصة. ومن منا لم يلحظ الشغف الذي يبديه الناس للاستماع إلى حكايات العائدين من السفر، والتقدير الواضح الذي يبديه الناس للخبرات التي أصبحت لدى أمثال هؤلاء نتيجة للسفر والانتقال والتعرف على حياة شعوب أخرى. فالتعرف

على ثقافات الآخرين هو مصدر للمتعة، كما أنه مصدر للمعرفة والخبرة، بل واكتساب المكانة، بسبب التمييز الذي يجريه الناس بين الذين يعرفون والذين لا يعرفون.

ولا تقتصر منافع التعامل مع التنوع عن طريق التعاون على العلاقات بين الدول، وإنما تمتد لتشمل أيضا العلاقات بين الجماعات الثقافية المختلفة سواء داخل الدولة الواحدة، أو عبر حدود الدول المختلفة. وفي الحقيقة فإنه لا يوجد ثقافة أو جماعة تستطيع أن تستغني عن مثل هذا التعاون، بدعوى أنها مكتفية بذاتها، وليس لديها حاجة للاستفادة من تجارب وخبرات الآخرين. على العكس فإنه يمكن القول أن الشعوب والثقافات يمكنها أن تكتسب مكانة متميزة في العالم بقدر ما يمكنها التفاعل الخلاق والاقتباس من الثقافات الأخرى في العالم. فالظروف التي تعيشها أي جماعة أو أمة معينة تجعلها مؤهلة لإبداع خاص في مجال من المجالات لا تستطيعه أمم وجماعات أخرى، فيكون في اتصال الأمم وتعارفها منفعة للجميع، يسهم كل منها فيها حسب ما تتيحه له ظروفه. على العكس من ذلك، فإن الثقافة التي تختار الانغلاق على نفسها إنما تفوت على نفسها فرصة التطور والنماء، فيكون حالها في هذا مشابها لحال القبيلة أو العائلة التي تفرض على أبنائها وبناتها الزواج من بعضهم البعض، بحيث يكون مصير هؤلاء الذين يتجرأون على الزواج من خارج الجماعة الطرد والعزل. ويقول لنا علماء الوراثة والأطباء أن مثل هذه الجماعات والقبائل تعاني من تدهور مستمر في صفاتها الوراثية، لأن زواج الأقارب يؤدي إلى زيادة فرصة ظهور الصفات السلبية، بحيث أنه بينما

تسير البشرية سيرا مستمرا نحو التقدم والرقي، فإن مثل هذه الجماعات والقبائل تتقدم باستمرار في اتجاه عكسي، ومثل هذا يكون حال الجماعات التي تنغلق على نفسها رافضة التعامل مع الاخرين.

وربما كانت هذه هي الحكمة من الآية الكريمة "يا إيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (الحجرات ١٣). بل أن التنوع والتعدد الذي أراده الله سُنَة وطبيعة للحياة البشرية لم يقتصر على الثقافات وطرائق الحياة، وإنما امتد ليشمل الدين والإيمان بالله. يقول تعالى "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس ٩٩). أكثر من هذا فإن الله اعتبر التنوع بين البشر من آيات قدرته، فيقول عز وجل "ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم" (الروم ٢٢). وكأن من يتغافل عن هذا التنوع الرائع يتغافل عن آية من آيات الله، أو كأن من يحب لهذا التنوع أن يختفي إنما يريد أن يقضي على واحدة من آيات الله.

فالله اختار للناس التنوع لأن في هذا خيرا لهم، وربما كانت الحكمة وراء هذا هي تأكيد أهمية التلاقح بين الثقافات والتعاون بين الناس، وكأن من يقاومون هذا التنوع والتعدد الإنساني محاولين فرض ثقافة واحدة على كل البشرية، إنما لم يدركوا حكمة الله في خلقه، أما هؤلاء الذين يتمنون أن يجدوا أوطانهم وقد تخلصت من الأقليات الثقافية والعرقية التي تعيش فيها، فإنهم، ودون قصد ، يعملون على حرمانها من عوامل الإغناء والإثراء التي تزيد فرصتها في التقدم، في الوقت الذي يتقدم فيه

العالم بسرعة غير مسبوقة بفضل التعاون والإثـــراء المتبـادل الخلاق بين الجماعات والشعوب المختلفة.

ولا يوجد دليل على فائدة التلاقــح الثقــافي وقدرتــه علـــى الإسهام في تقدم الشعوب والإنسانية جمعاء خيرا مـــن الخـــبرة العربية الإسلامية. فقد قام العرب بحمل لواء الإســـلام ونشـــره بين شعوب العالم القديم في الأقاليم المحيطة بموطـــن الإســـلام الأول في شبه الجزيرة العربية. وقد أتاح الدين الحنيف للعـــرب قوة إيمان وحماسة لم يعهدوها من قبل، حتى أنهم تغلبوا علـــى إمبراطوريات وحضارات عريقة كانت تفوقهم في مستوى التقدم والرقي. وكان للعرب بإيمانهم بدينهم والانتصارات التي حققوهـا أن ينحوا نحو احتقار الحضارات التي تمكنوا مـــن الانتصـــار عليها، كما كان لهم أن يظنوا أن آخر الرسالات السماوية تغنيـهم عن التعلم من حضارات الشعوب الأخرى. غير أن أيا من هـــذا لم يحدث، وانفتح العرب على ثقافات الشعوب الأخـــرى، ولـــم يستكبروا أن يتعلموا منها ويأخذوا عنها كل ما تستطيع أن تقدمـه لهم.

والتاريخ العربي الإسلامي غني بوقائع وخـــبرات التفـــاعل الثقافي بين العرب والشعوب الأخرى. وقد بـــدأ هـــذا الاتجـــاه مبكرا منذ أخذ الخليفة عمر بن الخطاب عـــن الـــروم أســـلوب تنظيم الدولة، عندما نقل عنهم نظام الدواوين الـــذي لـــم يكـــن معروفا لدى العرب. أما العصر الذهبـــي للحضـــارة العربيـــة الإسلامية، كما تجسد في زمن الدولة العباسية، فقـــد كـــان هـــو نفسه العصر الذهبي للتفاعل الثقافي بين العرب وغـــيرهم مـــن الشعوب، وقبل أن ينقضي وقت طويل علـــى تأسـيس بغـداد

كعاصمة للخلافة العباسية أصبح متاحا لقارئ العربية لأول مرة أهم كتب أرسطو وشروح أفلاطون والكتب الطبية لجالينوس ، بالإضافة إلى مجموعة هائلة من الكتب العلمية والفلسفية المترجمة عن الفارسية والهندية، وسريعا ما هضم طلاب العلم من العرب ما وصلهم عن طريق الترجمة، فأصبحوا قادرين على الانتقال إلى مرحلة التأليف والإبداع.

وهناك الكثير من الأمثلة على هذا. ففي سنة ١٥٤ هجرية، الموافقة ٧٧١ ميلادية، قدم إلى بغداد رحالة هندي ومعه كتاب – أو رسالة بلغة أهل ذلك الزمان– في الفلك. وعلم الخليفة المنصور بأمر تلك الرسالة، فأمر بترجمتها إلى العربية، وكلف محمد بن على إبراهيم الفزاري، وكان له اهتمام بعلم الفلك، بتلك المهمة. فعندما انتهى الفزاري من مهمته كانت قد تكشفت له حقائق كثيرة عن علم الفلك لم يكن على دراية بها من قبل، فهضمها وأضاف إليها. وانفتحت شهيته لمزيد من الرغبة في التعرف على إسهامات الشعوب الأخرى في علم الفلك، فجمع كل ما وصل إليه من علم الفلك عن الهنود والإغريق في كتاب – أو كما يسمونه مصنف– واحد، حتى أصبح الفزازي أهم فلكيي عصره.

وكانت بلاد فارس مشهورة بتقدمها في علوم الطب، وكانت مستشفى – بيمارستان– جنديسابور أشهر معاهد الطب في فارس، وكان على رأسها طبيب شهير هو جورجيس بن بختيشوع، الذي كان من أتباع طائفة دينية صغيرة هي الطائفة النسطورية. في هذا الوقت اعتلت صحة الخليفة المنصور وعجز أطباء بغداد عن علاجه، فلما علم المنصور بأمر

جورجيس النسطوري أرسل في استدعائه، فداواه، فاتخذه طبيبا خاصا له، وعاشت عائلته في بغداد، وقدمت ستة أجيال من أشهر أطبائها، وظلت عائلة بختيشوع تسهم في تطوير علوم الطب عند العرب لثلاثة قرون كاملة، فنقلوا لأطباء العرب خبرة شعب فارس في الطب والدواء.

وقد لعبت الترجمة عن اللغات الفارسية واليونانية والهندية دورا كبيرا في تحقيق هذه النهضة. فأنشأ الخليفة المأمون في بغداد مؤسسة كبرى أسماها بيت الحكمة، كان عليها تنظيم وتشجيع الترجمة عن الكتب الأجنبية، خاصة اليونانية، وحفظها وإتاحتها للقراء لتسهيل نقل المعرفة والتشجيع على التعلم والانفتاح الثقافي والفكري على حضارات الشعوب الأخرى، في تطبيق خلاق للحديث الشريف "اطلبوا العلم ولو في الصين". وكان نتيجة ذلك أن نشطت حركة النقل والترجمة، وتركز الاهتمام على كتب جالينوس في الطب، وإقليدس في الرياضيات، وبطليموس وأفلاطون وأرسطو في الفلسفة. وكان المترجمون يأتون إلى بغداد ومعهم المخطوطات التي يتولون ترجمتها، كما فعل قسطا بن لوقا وابن البطريق وسلام الأبرش. واستعان الخليفة بالإضافة إلى ذلك بالعديد من المترجمين من غير العرب، لما وجده فيهم من خبرات ومعارف لم تكن متاحة بعد للعرب، فبرزت أسماء مثل يوحنا بن ماسويه، وهو سرياني، وحنين بن إسحاق، الذي كان من النساطرة المقيمين في إمارة الحيرة العربية، وكان طبيبا بارعا حتى أن المأمون اتخذه طبيبا خاصا، كما سلمه أمانة إدارة بيت الحكمة، وطلب إليه أن يقوم بالترجمة بنفسه، فكان من بين ما

نقله للعربية مؤلفات لجالينوس وأبقراط وديسقوريدس وكتاب السياسة لأفلاطون والطبيعة لأرسطو.

لقد كانت الحواضر العربية الإسلامية، خاصة بغداد، مقصدا لأهل العلم من كافة الثقافات والديانات، كما وجد المؤلفون والمترجمون من غير العرب ومن غير المسلمين في الدولة العربية الإسلامية البيئة الصالحة لازدهار أعمالهم، فأفادوا العرب والمسلمين كما أفادوا البشرية، وبرزت أسماء كثيرة في كافة مجالات العلم والمعرفة، ومن بينها ثابت بن قرة الذي لمع في مجال الترجمة إلى العربية. وكان ثابت من بين أبناء طائفة الصابئة الذين عاشوا في منطقة حران، والذين اشتهر عنهم الاهتمام بعلوم الرياضة والفلك. وقد وجد بن قرة رعاية خاصة من الخليفة المعتضد. أما بعد ثابت فإن ابنه سنان، ومن بعده أحفاده إبراهيم وثابت وأبو الفرج قد تابعوا القيام بالترجمة إلى العربية.

أما القرن العاشر الميلادي فقد شهد قيام جماعة المترجمين من أبناء الطائفة اليعقوبية بدور كبير، فكان منهم يحيى بن عدي وأبو علي بن زعة. أما من اليهود فقد برز اسم موسى بن ميمون الذي عاش في قرطبة زمن الحكم العربي الإسلامي. كما برز اسم كوهين العطار، الذي عرف باسمي داود العطار، والذي عاش في القرن السابع الهجري-الثالث عشر الميلادي. ومن أهم مؤلفاته كتاب "منهاج الدكان في الطب". وكذلك داود الأنطاكي، صاحب "تذكرة أولي الألباب" المعروفة بتذكرة داود، التي تعتبر أهم مراجع الصيدلة والدواء في العصر الذي عاش فيه، أي القرن العاشر الهجري-السادس عشر الميلادي. أما

أشهر مترجمي ومؤلفي القرن الثاني عشر الميلادي، فهو ياقوت الحموي، المولود لأبوين يونانيين في آسيا الصغرى، أي فيما يعرف الآن بتركيا. وكان الحموي أحد من كتبوا الموسوعات في التاريخ العربي الإسلامي، ومن أهم أعماله معجم البلدان الذي هو موسوعة هائلة في الجغرافيا وعلم السلالات البشرية.

فإذا تركنا التاريخ العربي الإسلامي ونظرنا إلى العالم من حولنا لوجدنا فوائد التنوع والتفاعل الحضاري والثقافي حاضرة في أركان المعمورة. فإذا نظرنا إلى اللغة الإنجليزية التي هي أوسع اللغات انتشارا، لوجدناها تحتوي على مفردات مقتبسة من حوالي ٢٤٠ لغة أخرى، الأمر الذي أتاح للإنجليزية قدرا واسعا من المرونة والثراء الذي يتيح لها القدرة على التعبير السلس عن الحقائق والأفكار بطريقة لم يكن من الممكن أن تتوافر لها لولا انفتاحها على الثقافات واللغات الأخرى الموجودة في العالم.

أما في داخل الدولة الواحدة، فإنه يمكن للتنوع، إذا أحسن توظيفه والتعامل معه، أن يكون سببا في قوة المجتمع والدولة وإغنائهما. ولنأخذ المجتمع الأمريكي كمثال، فالولايات المتحدة هي مجتمع تكون نتيجة الهجرة من كافة بقاع العالم إلى الأرض الجديدة. وقد نجح هؤلاء، وإن لم يكن هذا أمرا سهلا، في تحقيق درجة مناسبة من التعايش بين الجماعات الثقافية والعرقية المختلفة، بالشكل الذي أتاح لكل منها المشاركة في بناء الولايات المتحدة التي أصبحت القوة العظمى الوحيدة في عالم اليوم. وهو الإنجاز الذي يفخر به الأمريكيون ذوي

الأصول الإنجليزية الذين لعبوا الدور الأساسي في صياغة الإطار القانوني والدستوري الذي ينظم المجتمع. كما يفخر به الأمريكيون ذوو الأصول الألمانية الذين قدموا إسهاما كبيرا لتقدم العلوم في الولايات المتحدة. أما في الرياضة والفنون فإن إسهام الأمريكيين السود هو إنجاز رائع بكل المقاييس.

كان أمام الأمريكيين الأوائل، الذين جاءوا من بريطانيا، الدولة التي سيطرت على الجزء الأكبر من أمريكا الشمالية، عدة اختيارات. فقد كان لهم أن يقصروا قبول المهاجرين إلى العالم الجديد على المهاجرين من الجزر البريطانية، بحيث تتحول القارة الجديدة إلى مجرد ملحق لبريطانيا، كما كان لهم أن يقصروا الهجرة لها على اتباع المذهب البروتستانتي، الذي يدين به أغلب البريطانيين، حتى لو اختلفوا في الانتماء اللغوي والثقافي. كما كان يمكن لهم أن يقصروا الهجرة إلى أمريكا على شعوب شمال أوروبا التي يوجد تشابه كبير بينها من حيث الدين والثقافة والعادات، حتى وإن اختلفت لغاتهم. أو كان لهم أن يقصروا الهجرة للأرض الجديدة على الشعوب البيضاء وحدها. أو بدلا عن كل ذلك فإنه كان لهم أن يتيحوا الهجرة لأي من كان، بشرط أن يكون إعطاؤه الحقوق الكاملة للمواطن مرهونا بإتقانه اللغة الإنجليزية أو تبنيه المذهب البروتستانتي.

غير أن أيا من هذا لم يحدث، واختار الجيل المؤسس للولايات المتحدة الأمريكية أن يفتح أبواب أمريكا للمهاجرين من بقاع العالم المختلفة، فكانت الدرجة العالية من التنوع، التي أصبحت علامة مميزة للمجتمع الأمريكي، مصدرا للقوة

والإغناء، الأمر الذي يمكن ملاحظته في تحول هذا البلد صغير السن إلى أكبر قوة في عالم اليوم.

وكان طريق الولايات المتحدة إلى هذا النجاح هو بناء نظام لديه قدرة عالية على استيعاب المهاجرين من خلفيات مختلفة، وكان الأسلوب المناسب لتحقيق هذا النجاح هو تجنب إكراه أي جماعة عرقية أو ثقافية على التخلي عن هويتها أو لغتها أو دينها، وترك أبناء الجماعات المختلفة يقررون لأنفسهم المستوى المناسب من الاندماج في المجتمع الأمريكي. وكان ذلك يتم عادة وفقا لمدى شعورهم بالحاجة إلى ذلك. فبقدر ما كان تعلم اللغة الإنجليزية ضروريا للحصول على وظيفة، أو للتخاطب مع الأمريكيين من المتحدثين بالإنجليزية، أو للاستماع والاستمتاع بوسائل الإعلام والترفيه، بقدر ما كان المهاجرون الجدد يتعلمون الإنجليزية ويكتسبون بعض العادات التي سبقهم إليهم المهاجرون الأسبق عهدا، وبقدر ما كان الاندماج في المجتمع الأمريكي يتحقق دون إكراه، فإنه سمح للجماعات الثقافية المختلفة بالحفاظ على الجزء من هويتها الذي لا يعوق اندماجها في المجتمع الأوسع، والذي يتيح لها في الوقت نفسه الاحتفاظ بتميزها.

وقد تحقق الاندماج التدريجي للجماعات العرقية والثقافية المختلفة عبر عدد من الأساليب. ومن أهم تلك الأساليب المساواة الكاملة التي يضمنها الدستور والقانون. فالدستور والقانون في الولايات المتحدة لا يميز بين المواطنين على أساس الدين أو العرق أو اللغة أو اللون أو الأصل، أو أي أساس آخر. ومع هذا فإنه يجب أن نتذكر أنه بالرغم من أن

الدستور الأمريكي الذي تم وضعه منذ أكثر من قرنين من الزمان ينص على المساواة بين المواطنين، إلا أن الممارسة الواقعية في الولايات المتحدة تضمنت قدرا مخيفا من التمييز والعنصرية ضد الأمريكيين من أصول غير أوروبية. وقد استلزم الأمر سنوات طوال من الكفاح الشاق، حتى أصبحت الولايات المتحدة أقرب كثيرا من تحقيق نموذج المجتمع المتسامح الذي يضمن المساواة الكاملة بين أبنائه. وليس أدل على دلك من أن الولايات المتحدة كانت مضطرة لخوض حرب أهلية استمرت عدة أعوام لإلغاء العبودية التي عانى منها الأمريكيين من أصول أفريقية.

وقد تقدم المجنمع الأمريكي من تحقيق نموذج المجتمع المتعدد الاعراق القائم على المساواة بقدر اقترابه من نموذج التعددية الثقافية. فبقدر ما أصبح المجتمع الأمريكي أقدر على الاعتراف بالتعدد العرقي والثقافي وقبوله على أساس من المساواة، بقدر ما كان هذا المجتمع قادرا على تحقيق قدر أعلى من التعايش البناء والخلاق بين الجماعات العرقية والثقافية المختلفة. فالاعتراف بوجود الجماعات المختلفة، والاستعداد لقبول كل ما يترتب على الاعتراف من حقوق في المساواة والاحترام، يمثل ركيزة أساسية للتعامل مع التنوع العرقي والثقافي بطريقة تضمن تحوله إلى رصيد وليس إلى نقطة ضعف ومصدر للتوتر.

ويعد الزواج المختلط من الأساليب التي ساعدت المجتمع الأمريكي على تطوير درجة تماسكه الاجتماعي وقدرته التكاملية. ومع أن اتباع هذا الأسلوب قد يكون متعذرا في بعض

المجتمعات، إلا أن التعرف على الخبرة الأمريكية في هذا المجال يظل ذا فائدة كبيرة. ففي عام ١٩٦٠، لم يكن سوى ٦% من اليهود الأمريكيين متزوجين من غير أتباع الديانة اليهودية. وقد وصلت هذه النسبة إلى ٢٥% في عام ١٩٨٥، أما بنهاية التسعينيات فإن نسبة اليهود المتزوجين من غير اليهود قد وصلت إلى ٥٢% من يهود الولايات المتحدة البالغ عددهم ستة ملايين. ومن المعروف أن اليهود هم من أكثر الأقليات اندماجا في المجتمع الأمريكي، وهم بالتأكيد أقل الأقليات شكوى من تعرضهم للاضطهاد والتمييز، على العكس فإن البعض يتهمهم بالسيطرة على المجتمع الأمريكي، أو على الأقل فإنهم يتمتعون بمستوى من النفوذ يزيد بشكل ملحوظ عن نسبة وجودهم في المجتمع. وبغض النظر عن مدى دقة هذا القول أو ذاك، فإنه ليس من الصعب ملاحظة التوازي بين تحسن وضعية اليهود في المجتمع الأمريكي من ناحية، وازدياد اندماجهم فيه على كافة المستويات من ناحية ثانية.

وقد حدث تطور مشابه مع الأمريكيين السود. فبينما لم تزد نسبة السود الأمريكيين المتزوجين من زوجة أو زوج غير أسود عن ٢,٦% في عام ١٩٧٠، فإن هذه النسبة قد وصلت إلى ١٢,١% بحلول عام ١٩٩٣. أما بين الأمريكيين من أصل أسيوي، فإن نسبة الذكور المتزوجين من شريك ينتمي لجماعة عرقية/ثقافية أخرى قد بلغت ١٢%، أما بين الإناث الاسيويات فإن نسبة الزواج المختلط بينهن قد بلغت ٢٥%.

لقد أدى انتشار الزواج المختلط إلى تغيير كبير في التركيب السكاني للولايات المتحدة، حتى أن الصورة التقليدية للولايات

المتحدة كمجتمع يتكون من أعراق محددة متعددة لم تعد دقيقــــة. فقد ظهرت فئة واسعة من الأمريكيين الذين لا يمكن وصفـــــهم باعتبارهم بيض أو سود أو من أصول أسبانية أو آسيوية. إنـــها فئة مختلطي أو متعددي الأعراق، وهي فئة يتضــاعف عددهــا مرة كل حوالي عشر سنوات، حتى أن كثيرين فـــي المجتمـــع الأمريكي أصبحوا يطالبون باعتبار فئة مختلطـــــي أو متعـــددي الأعراق فئة قائمة بذاتها إلى جانب الجماعات العرقيـــة الأكــثر وضوحا وتحديدا.

لكن العيش في ظل عالم أو مجتمع يتسم بــــالتعدد والتنــوع يحتاج إلى وجود قدر وافر من التسامح بين الفئات الاجتماعيـــة المختلفة، أي من القدرة على قبـــول الآخــر برغــم اختلافـــه، بالإضافة إلى التحلي بقدر كبير من العدالة والموضوعية عندمـــا يتعلق الأمر بفرد أو جماعة يختلفون عنا في اللون أو الثقافـــة أو الدين. ولكن التسامح والقبول في حد ذاتهما قد لا يكونا كــــافيين لتحقيق الغرض المطلوب. فالواحد منا قد يتسامح مع من أخطـــأ في حقه، باعتبار ذلك نوعا من السمو الأخلاقي والتعـــالي عـــن الانشغال بصغائر الأمور، بالضبط كما نتسامح مـــع الحماقـــات التي يرتكبها الأبناء في مرحلتي الطفولة والمراهقة، باعتبارهـــا نتيجة لنقص الخبرة والنضج. فالتسامح من هذا النـــوع ينطـــوي على معنى استصغار الآخر، وهو أســـاس غـــير كـــاف لقيـــام علاقات تقوم على التكافؤ والمساواة بين الشعوب والجماعات.

فالآخر العرقي أو الثقافي ليس شـــخصا نـــاقص الأهليـــة أو النضج لكي نتسامح معه كما نتسامح مع الخطائين من البشــر أو مع الأطفال والمراهقين. ولا يخفى أن مثـــل هـــذا النـــوع مـــن

التسامح يقوم على ادعاء ضمني بالتفوق على الآخر، فهو بالتالي نوع من التسامح لا يخلو من عنصرية كامنة يمكن لها أن تنفجر وتطفو إلى السطح في أي لحظة إذا توافرت الظروف المناسبة.

أما التسامح وقبول الآخر الذي يمكنه أن يكون أساسا متينا للتعايش في سلام والتعاون بين الشعوب والجماعات، فإنه التسامح القائم على أساس من الاحترام، احترام خصوصية الآخر وثقافته وحضارته، وهو يقوم على الإيمان بأن التنوع إنما هو أمر طبيعي، وبأن القضاء على التنوع أو إزالته هو مطلب مناقض لطبيعة الكون والبشر، وأن كل شعب أو جماعة بشرية قد طورت ثقافتها في ظل ظروف معينة ساهمت في تشكيل هذه الحضارة وتلك الثقافة، وأنها بالتالي تستحق الاحترام باعتبارها، بالضبط مثل حضارتنا وثقافتنا، تعكس الأسلوب الذي اختارته جماعة بشرية معينة للتكيف مع ظروف البيئة المحيطة بها، وأنها نتيجة منطقية لظروف موضوعية كانت غالبا خارج سيطرة البشر.

إذن فالمهم في التسامح وقبول الآخر على أساس من الاحترام هو الإيمان العميق بمبدأ المساواة بين كل الشعوب والجماعات والثقافات، بحيث لا يصبح من حق أي شعب أو أبناء أي ثقافة ادعاء الأفضلية والتفوق على أي شعب أو ثقافة أخرى. ولعل شعوب دول العالم الثالث النامية تكون أكثر من غيرها من شعوب الدول المتقدمة إيمانا بهذا المبدأ، باعتبار أن شعوب الدول النامية هي أكثر استفادة من تطبيق مبدأ المساواة بين الشعوب والثقافات والالتزام به. فقد اعتادت شعوب الدول

المتقدمة، منذ أن استطاعت تحقيق التقدم الصناعي والتكنولوجي والاجتماعي والسياسي والعسكري، ادعاء الأفضلية والسبق على شعوب المناطق النامية، وأخذت من تقدمها في المجالات المختلفة دليلا على هذه الأفضلية. وكان قيام الدول الأوروبية باستعمار القارة الأمريكية، التي تم اكتشافها من جانب الرحالة الأوروبيين عام ١٤٩٢، ثم استعمار قارتي آسيا وأفريقيا في القرون التالية لذلك، كان الاستعمار وما ارتكب خلاله من فظائع ومذابح واستعباد هو نتيجة مباشرة لتطبيق مبدأ أفضلية ثقافات وشعوب على ثقافات وشعوب أخرى، أي أفضلية الثقافات الأوروبية على ما عداها من الثقافات. في هذا السياق ظهرت نظرية "عبء الرجل الأبيض"، وهي النظرية التي تبرر الاستعمار ومظالمه باعتباره الطريقة الوحيدة لتمكين الأوروبيين البيض من نقل تفوقهم الثقافي والحضاري إلى شعوب أخرى لا تستطيع بنفسها الخروج من حالة الهمجية والتوحش التي تعيش فيها.

ومع أن الاستعمار قد انتهى منذ زمن طويل، إلا أن نظرية التفوق الحضاري والثقافي للغرب لم تنته معه، فقد نجحت شعوب المستعمرات بكفاحها في أن ترغم الاستعمار على الرحيل، ولكن كفاحها هذا لم يكن كافيا لإنهاء نظرية التفوق الحضاري الغربي. فاستمرت هذه النظرية في الحياة لبعض الوقت بعد ذلك. وقد عانينا نحن في مصر من سيادة هذه النظرية العنصرية، عندما أتى الاستعمار الأوروبي إلى بلادنا في القرن الماضي.

ولأن الفجوة بين الشعوب المتقدمة والنامية مازالت قائمة بالنسبة لأغلب بلاد العالم الثالث، فإن بعض القوى في المجتمعات الغربية مازالت تستند إلى هذه الفجوة لتبرير ادعائها بالتفوق الحضاري والثقافي الغربي. غير أن عقيدة التفوق الغربي العنصرية، لحسن الحظ، لم تعد تتمتع سوى بتأييد محدود في أوساط شعوب الدول المتقدمة، وأن المثقفين والمتعلمين في هذه البلاد أصبحوا يؤمنون بالمساواة والتكافؤ بين الشعوب والثقافات. ومن المنطقي أنه من صالحنا العمل على تدعيم هذا الاتجاه، واعتباره حليفاً لنا في معركتنا لإنهاء التخلف.

أما عن الأسلوب الأمثل لتحقيق ذلك فهو أن يشيع بيننا اعتقاد أصيل بالتكافؤ والمساواة بين الشعوب والثقافات المختلفة، وأن ينعكس هذا الاعتقاد في سلوكنا تجاه أصحاب الثقافات المختلفة، سواء تلك التي تشاركنا الحياة على أرض الوطن، أو تجاه أصحاب الثقافات المختلفة الذين يعيشون في أوطان أخرى. أما إذا لم نستطع القيام بذلك، وإذا ساد بيننا اعتقاد بتفوقنا الحضاري والثقافي على الآخر، فإننا نكون قد وفرنا ذريعة للاتجاهات العنصرية في البلاد المتقدمة للتشدد في موقفها المعادي لنا، ولكسب مزيد من الأنصار لها. فإذا حدث هذا، خاصة في ظل الفجوة العلمية والتكنولوجية والاقتصادية التي تفصلنا عن الدول المتقدمة، فإننا سنكون أكبر الخاسرين من العداء بيننا وبين الغرب والدول المتقدمة.

ويبرر البعض التعصب والقهر الذى يمارس ضد الأقليات الثقافية والعرقية والدينية بأن التسامح مع التنوع والاختلاف

يمكن أن يقود إلى تفكك المجتمع والدولة وضعفهما ، وأن قمع التنوع وعدم السماح بالتعبير عنه هو الأسلوب الوحيد لضمان تماسك المجتمع والدولة .

وفي مقابل قهر الجماعات التي تخالفنا في الثقافة كطريقة لتحقيق الوحدة، فإن الوحدة يمكن تحقيقها من خلال الحفاظ على التنوع واحترامه، وهو الأسلوب الذي يمكن تلخيصه في الوحدة من خلال التنوع. وقد زادت أهمية هذه الطريقة في تحقيق الوحدة في عصر ما يسمى بالعولمة، والتي يقصد بها زيادة التفاعلات بين الشعوب والجماعات المختلفة من خلال التقدم التكنولوجي في وسائل المواصلات والاتصالات، ومن خلال اندماج اقتصادات البلدان المختلفة في سوق عالمية واحدة تختفي فيها الحواجز الجمركية وغيرها من الحواجز بسرعة من خلال اتفاقات التجارة الحرة مثل اتفاقية الجات.

تؤدي العولمة إلى زيادة وتكثيف التفاعلات بين الجماعات والشعوب المختلفة، وبالتالي إلى زيادة التأثيرات المتبادلة بين الثقافات المختلفة إلى مستوى غير مسبوق في تاريخ البشرية. وتقود هذه التطورات إلى شعور الجماعات الثقافية المختلفة بشكل متزايد بتعرض هويتها الثقافية للتهديد، بتأثير من الظواهر والتيارات الثقافية القادمة من العالم الأوسع، وخاصة من البلاد المتقدمة التي تساهم بالنصيب الأكبر في إنتاج المواد الإعلامية والترفيهية التي تبثها وسائل الاتصال العالمية. وكرد فعل على هذا التهديد يشهد العالم في الحقبة التي نمر بها الآن اتجاها بين الجماعات الثقافية المختلفة للتأكيد على ذاتها وهويتها الثقافية، وهو التأكيد الذي يأخذ شكل المزيد من التدين أو

التمسك بالتقاليد الأصلية، وهي ظواهر محمودة. ولكن في بلاد عدة وصلت موجات التدين والتمسك بالهوية إلى مستوى التعصب وكراهية الآخر الثقافي، سواء كان أجنبيا يعيش في بلد آخر، أو جماعة ثقافية تعيش داخل الوطن، ووصلت كراهية الآخر في بعض الحالات إلى حد القتل وحروب الإبادة، وهو ما شهدنا أمثلة له في البوسنة وكوسوفا ورواندا.

أما التحدي الذي يواجه البشرية الآن فيتمثل في كيفية تمكين الجماعات الثقافية المختلفة من التمسك بهويتها وخصوصيتها دون أن يؤدي ذلك بها إلى الانزلاق للتعصب وكراهية الآخر. ويبدو أن الطريقة الوحيدة المعروفة لنا حتى الآن لتحقيق ذلك هي التمسك بمبدأ التسامح وما يتضمنه من قبول الآخر المختلف عنا باعتباره من سنن الحياة. ومن الضروري وضع القوانين والتشريعات التي تضمن تحقيق ذلك، بما يسمح بتوفير درجة عالية من المساواة والأمان لكل الجماعات الثقافية في عالم اليوم، بحيث تكون قادرة على التمسك بخصوصيتها الثقافية دون خوف من أن يؤدي تمسك الجماعات الأخرى بثقافتها أيضا إلى إشعال الفتن وتهديد الأمن. فالتسامح كما بينت الخبرة التاريخية هو طريق البشر نحو تعايش سلمي وتفاعل خلاق ومفيد

الفصل الثالث

عندما يكون التنوع نقـمة

البوسنة والسودان وكوسوفا والعراق والكونجو ورواندا وبوروندي والشيشان ولبنان. عندما يسمع أي منا واحد من هذه الأسماء فإن الصورة الأولى التي تأتي إلى ذهنه هي صورة مجتمع مدمّر يعيش أهله في حالة حرب مستمرة بين بعضهم البعض. في هذه المجتمعات تحول التنوع إلى نقمة وسبب لحالة مستمرة من حرب الجميع ضد الجميع، أو حرب الجميع ضد الوطن الذي يموت أبناؤه وتهدر موارده وتسقط هيبته فيصبح أمثولة بين الأمم.

ولأن مثل هذه الصراعات تستند إلى تاريخ طويل من انعدام الثقة والكراهية، فإنك ستجد كل طرف فيها وقد اقتطع من التاريخ وقائع وأسباب تبرر له ارتكاب أفظع الجرائم ضد الطرف الآخر. وستجد كل طرف من الأطراف المتورطة في هذه الصراعات وقد عاد بذاكرته إلى نقطة معينة في الزمن، فيعتبرها بداية التاريخ والصراع، لأنها النقطة التي وقع عليه عندها ما يراه ظلما لا يمكن السكوت عنه.

ومن طبيعتنا كبشر أن نحب ونكره، نصادق ونعادي. ولكننا عندما نفعل ذلك في حياتنا اليومية كأفراد، فإننا عادة ما تكون لدينا أسبابنا لذلك. فأنا قد أحب فلانا لأنه قدم لي معروفا جليلا أو لأنه خفيف الظل. كما أنني قد أكره علانا لأنه يثير المشكلات في وجهي. وبين الحب والكراهية توجد درجات عدة

من المزج بينهما. فقد أحب هذا الشخص ولكن فقط كزميل مريح في العمل أو الدراسة، ولكني لا أحب أن أتخذه صديقا نقضي معا وقت الفراغ أيضا. وقد أحب هذا الشخص إلى حد معين، ولكنه يشعرني بالغيظ أو الملل إذا قضينا معاً وقتا أطول مما ينبغي. وقد أحب أن أقضي وقت التسلية والمرح مع فلان بسبب روح المرح التي يتحلى بها، ولكني لا أستطيع أن أتخذه صديقا أحكي له أسراري ومتاعبي لأنه ثرثار لا يحفظ سرا،...وهكذا.

غير أن الأمر يختلف عن ذلك في العلاقة بين الجماعات العرقية والثقافية. فإذا كنت في أمريكا مثلا، فإنه ليس من المستغرب أن تسمع زميلا أسود في العمل أو الجامعة يقول لك أنه يمقت البيض. وهو هنا لا يقصد أن يقول أنه بعد أن قابل كل الأفراد البيض في العالم، تبين له أنهم أشخاص ماكرين أشرار، ولكنه يقصد أنه هكذا يكره كل الجنس الأبيض، بما فيه خفيفي وثقيلي الظل، والمخلصين الأوفياء والآخرين الخبثاء.

وفي العادة فإنه لا يوجد تبرير لمشاعر الكراهية في مثل هذه الحالة، وعادة ما تظل المشاعر من هذا النوع قائمة ومتقدة، وغير قابلة للاهتزاز والشك، إلا بعد أن تتعرض لمشاعر وخبرات أقوى منها، والتي عادة ما تكون مشاعر وخبرات مغموسة في الدم والخراب. عند هذا يستفيق أصحاب الضمائر ليتبينوا مدى الضلال الذي أوقعوا أنفسهم فيه. والمشكلة هي أن مشاعر الكراهية والتعصب من هذا النوع تكون في أحيان كثيرة أقوى كثيرا من خبرات الدم والدمار، فتستمر لتغذي دورات جديدة من العنف والقتل. وفي هذه الحالة فإننا نكون إزاء أناس

فقدوا القدرة على التسامح، وبالتالي على قبول الاختلاف والقدرة على التعايش مع الآخر المختلف عنهم، الذي باتوا يتصورونه ويصورونه بشكل مقيت كأنه الشيطان ذاته.

١ - صراعات لا جدوى منها :

والعالم مليئ بأشكال الاختلاف بين البشر أفرادا وجماعات، غير أن الاختلاف الذي نركز عليه في هذا الفصل هو الاختلاف في الصفات الموروثة، أي تلك التي يولد المرء بها، أو التي يتعلمها في مراحل حياته المبكرة، فلا تكون له القدرة على تغييرها إلا بشكل هامشي لا يكاد يذكر. فالفرد منا لا يستطيع أن يغير اللون الذي ولد عليه، ولا يستطيع تغيير ملامح وجهه وجسده. ومع أن البعض يمكنه أن يجري عملية جراحية لتصغير أنفه أو فكه، فإن هذه التغييرات تظل هامشية من ناحية، كما أن البشر عادة لا يلجئون إليها إلا بشكل استثنائي وبأعداد قليلة من ناحية أخرى .

وبالرغم من أننا نحرص على تعلم اللغات الأجنبية، بل إن مستوى معرفة بعضنا بلغة أجنبية قد يكون عاليا جدا، حتى يحسبه السامع من أهلها، فإن الأغلبية من البشر لا يستطيعون ذلك. فأغلب دارسي اللغات الأجنبية لا يعرفون منها سوى ما يكفيهم في أعمالهم وتعاملاتهم إذا كان تحصيل الرزق يحتاج ذلك. وفي كل الأحوال تظل للغة الفرد الأصلية مكانتها العالية، فالفرد منا يفكر باللغة التي نطق بها أول الكلمات عندما كان طفلا، وهي اللغة التي يكون بها أقدر على التعبير عن مشاعره ودخائل نفسه، لهذا فإن اللغة الأصلية لأي جماعة تستحق بحق

تاريخ البشرية وحاضرها غنيان بمحاولات مكافأة الناس ومعاقبتهم على انتماءات ورثوها ولم يختاروها.

والصراعات بين الجماعات العرقية والثقافية هي في جوهرها محاولة من جانب إحدى الجماعات لمعاقبة جماعة أخرى على انتماءاتها الموروثة. ففي بعض البلاد التي توجد بها جماعات تتحدث لغات مختلفة، مثل تركيا التي يوجد فيها ١٥ مليونا من الأكراد المتحدثين باللغة الكردية، أو الجزائر التي يوجد فيها حوالي أربعة ملايين من البربر المتحدثين باللغة الأمازيغية، فإن محاولات إجبار هذه الأقليات على التحدث بلغة الأغلبية -اللغة التركية في حالة تركيا والعربية في حالة الجزائر- لا تؤدي إلا إلى إثارة الفرقة والصراع. فمن منا يحب لإبنه أن يكبر وقد عجز عن فهم لغة أبيه وأمه والتحدث بها. ومن منا يحب أن يجد الأغنيات التي طرب لها ممنوعة من البث الإذاعي والتليفزيوني لأنها منطوقة بغير لغة الأغلبية السائدة؟

ولأن إجبار الناس على التحدث بلغة الأغلبية هو أمر غير ممكن، خاصة إذا كانوا لا يعرفونها، فإن محاولات تغيير اللغة الأصلية للسكان تأخذ شكل محاصرة هذه اللغة الأصلية، وتضييق نطاق استخدامها بحيث لا تصبح مستخدمة سوى في البيت أو بين جماعات القرابة والأصدقاء. فعندما يكون التعامل مع الجهات الرسمية مقصورا على لغة الأغلبية، فإن المواطن من أبناء الأقلية اللغوية يجد صعوبة كبيرة في فهم القوانين والتعليمات، كما يجد صعوبة في قضاء مصالحه ومعاملاته مع الجهات الحكومية، بل إنه لا يستطيع أن يحصل لنفسه على

الاسم الذي أطلقه عليها العلماء والدارسين، أي اللغة الأم، فهل هناك أكثر من الأم عطفا وحنانا على أبنائها؟

الأمر نفسه ينطبق على العقيدة الدينية. فالناس عادة لا يختارون دينهم، ولكنهم يرثونه من آبائهم، ويتعلمونه مع كلماتهم الأولى، وفي كل لحظة يشاهدون فيها آباءهم يمارسون شعائره في المنزل، وفي كل مرة يصطحبونهم فيها إلى دور العبادة. فقلة قليلة جدا من الناس هم الذين يعتبرون أنفسهم يهودا أو مسيحيين أو مسلمين أو هندوس أو بوذيين لأنهم، بعد أن درسوا كل هذه الديانات ومعها ديانات أخرى كثيرة في الهند والصين واليابان وأفريقيا، اهتدوا إلى أن دينهم هو الصواب. وفي أغلب المجتمعات يكون تغيير المرء للدين الذي وجد عليه آباءه أمرا في غاية الصعوبة، على الأقل لما يسببه ذلك له من قطيعة وعزلة عن أهله وعشيرته، الأمر الذي لا يستطيع أغلب الأفراد تحمله.

ولا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة للانتماء القبلي. فالقبيلة بالنسبة لأبنائها هي الأهل، ومن منا يستطيع أن يغير أهله، فيجد لنفسه أعماما غير أخوة أبيه، وخالات غير أخوات أمه. ربما يمكن للمرء أن يسمح لصلاته بأهله بالتآكل والضعف، ولكنه لا يستطيع في كل الأحوال أن يهجر قبيلته لينضم إلى قبيلة أخرى.

فإذا كانت كل هذه الانتماءات هي من نوع الانتماءات الموروثة، والتي ليس للإنسان مسئولية عن اختيارها، فهل يجوز مكافأة الفرد أو عقابه على شئ لا يمكن اعتباره مسئولا عنه؟ بالطبع لا، أو هكذا يقول المنطق السليم. ومع هذا فإن

وظيفة في هذه الجهات، أو في أي جهة تتعامل معـــها، بسـبب عجزه عن التعامل باللغة السائدة ، فتسود البطالـــة بيـــن أبنــاء الأقلية، ويتدهور وضعهم المعيشي، ويصبح التمييز اللغوي سـببا في تمييز اقتصادي، فيسود الفقر بين أبناء الأقلية، وتزيـد معــه عوامل الاضطراب وعدم الاستقرار.

أما في المدرسة ووسائل الإعلام ودواويـن الحكومـة فإنــه عندما يصبح استخدام اللغة الأم ممنوعا، فإن الأجيـال الجديـدة تنسى تدريجيا لغة أهلها، الأمر الذي يثير غضب وحنق كـل أب وأم يجدا أبناءهما وقد عجزوا عن التفاهم معهما، وينشأ لديـــهما إحساس بأنهم وأبناءهم ضحايا للتمييز والاضطـــهاد، ويـــهبون للدفاع عن لغتهم وهويتهم، فيثور الاضطراب والقلاقـــل وعــدم الاستقرار، ويدفع المجتمع والوطن كله بأغلبيته وأقليتـــه ثمــن سياسة التمييز والاضطهاد.

وما ينطبق على اختلاف اللغة ينطبق على اختـــلاف الديـــن إلى حد كبير. فبالرغم من أننا قد اعتبرنا اللغــــة والديــن مــن الخصائص التي يرثها الإنسان، إلا أننا لا يجب أن نغفــل أنـــها ليست صفة طبيعية -بيولوجية أو تشريحية- مثل لون البشـــرة أو ملامح الوجه، تمثل جزءا لا يتجزأ من جسد الإنسان، ولكنــها صفة ثقافية تتسرب إلى عقل الفرد وروحه وتستقر فيـــهما فـــي مراحل العمر المبكرة، فتصبح جزءاً لا يتجــزأ مــن موروثـــه الثقافي، وهي مجموعة من العلاقـــات والتقـــاليد والممارســات والطقوس الاجتماعية، تحيط بالفرد منذ نعومــــة أظـــافره، فـــلا يتصور نفسه خارجها، فتصبح جزءا لا يتجــزأ مــن موروثـــه الاجتماعي.

هذا الفارق بين الموروث الطبيعي من ناحيـــة، والمـــوروث الثقافي والاجتماعي من ناحية أخرى، يجعل البعض يظنـــون أن لغة الإنسان ودينه هما من الأمور التي يمكنه تغييرهما بإرادتـــه، فكما تعلم لغة آبائه وهو صغير يمكنه أن يتعلم لغة الأغلبية وهـو كبير، وكما تبنى دين ابائه وهو صغير يمكنـــه أن يتبنـــى ديـن الأغلبية وهو كبير. وطبقا لهذا الرأي، فإنه مادام الفـــرد يتعلـم لغته ودينه وليس مولودا بهما، فإنه في الحقيقة مسئول عنـــهما، وأنه لا غضاضة بالتالي في التمييز بين الناس علـــى أســـاس الدين واللغة نظراً لأن الفرد يمكنه أن يتخلص من هذا التميـــيز إذا اتخذ قراره بالتحول إلى لغة الأغلبية أو دينها.

إلا أن ما لا يدركه هؤلاء المتحمسون هو أن الأشياء التـــي يتعلمها الإنسان في مراحل التنشئة الأولى تصبح لصيقة بـــالفرد منا، بل إنها تصبح جزءا من كيان الفرد نفسه، حتى أنه يكـاد لا يمكنه تغييرها على الإطلاق، خاصـــة وأن تغييرهـــا يمكـــن أن يترتب عليه تمزيق علاقاته بأهله وجيرانـــه وأصدقائـــه الذيـــن تربى معهم على التحدث بلغة معينة، والإيمان بدين معين. وفـــي الحقيقة فإن الفرد المنتمي إلى أقلية دينية تتعرض للتمييز يكـــون ضحية لنوعين من الضغوط، ضغوط المتعصبيـــن مـــن أبنـــاء الأغلبية الذين يطالبونه بالتحول إلى دينهم من ناحية، وضغـــوط أهله وعشيرته الذين يهددونه بالقطيعة والعزلـــة الاجتماعيـــة إذا هو ترك دينهم، فهل يصح في مثل هـــذه الحالـــة أن نقـــول أن الفـــرد حرا في تغيير ديانته؟ وربما كان هذا هو أحد الأســـباب وراء نزول الآية الكريمـــة "أدع إلـــى ســـبيل ربـــك بالحكمـــة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحســـن" (النحـــل ١٢٥)،

لأن الله تعالى الذي خلق الأفراد والجماعات يعلم مدى ما يعانيه الفرد عندما يجد نفسه محاصرا بين هذه الضغوط المتعارضة، والتي حرص الله على تخفيفها، برحمته التي وسعت كل شيء.

٢ - نماذج للتعصب القومي والديني :

لقد عرف تاريخ البشرية صراعات كثيرة ترتبت على كل أشكال التنوع البشري الحقيقية والمصطنعة. فالمأساة التي يعيشها الشعب الكردي، خاصة في العراق وتركيا، هي أحد مظاهر التمييز بسبب الاختلاف في اللغة والقومية. ففي عام ١٩٢٢ تأسست مملكة العراق وضمت مقاطعتي الموصل والسليمانية ذات الأغلبية الكردية، واللتين كانتا تسعيان منذ فترة للحصول على الاستقلال. وبعد فترة من المقاومة الكردية، خفض أكراد العراق مطالبهم إلى الحصول على نوع من الحكم الذاتي في إطار العراق الموحد ، غير أن الشكوك والعداء القومي منعت إقامة علاقات صحية بين الشعبين العربي والكردي في العراق، الأمر الذي انعكس في الحرب الأهلية المستمرة هناك طوال أغلب الفترة الممتدة منذ تكون العراق.

وقد شهدت هذه الفترة العديد من الاتفاقيات التي لم يجر تنفيذها، والعديد من الفظائع والآلام، غير أن أقسى هذه المراحل هي المرحلة بين انتهاء الحرب العراقية – الإيرانية وحرب تحرير الكويت. ففي هذه المرحلة حاول نظام الرئيس صدام حسين استغلال النصر الذي حققه على إيران، والتأييد الدولي الذي تمتع به بسبب نجاحه في التصدي لإيران التي كانت تهدد المنطقة كلها، فقام جيشه بتنفيذ ما يشبه حرب الإبادة

ضد الشعب الكردي، وهي الحرب التي لم يتورع خلالها عن استخدام الأسلحة الكيماوية المحرمة دوليا، كما حدث في مدينة حلابجة، التي تم قصفها بغاز الخردل المميت، مما أدى إلى وفاة أكثر من ستة آلاف من أهلها، كما تم تدمير ما يقترب عدده من ثلاثة آلاف قرية كردية وتهجير سكانها، كما امتنعت الدولة عن دفع رواتب موظفيها من الأكراد الذين بلغ عددهم ١٥٠ ألفا في إطار حملة منظمة لاضطهاد الشعب الكردي في العراق.

وقد انعكست هذه المعاملة التمييزية القاسية في الثورة التي شنها أكراد العراق في مارس ١٩٩١ في أعقاب هزيمة نظام الرئيس صدام حسين في حرب تحرير الكويت، وبرغم الوحشية التي قابل بها النظام العراقي هذه الثورة، إلا أنها نجحت في النهاية في إنهاء سيطرة الدولة العراقية على المناطق الكردية. ولولا المعارضة الدولية لاستقلال كردستان العراقية، لكان ما يشبه الاستقلال الذي يتمتع به أكراد العراق الآن قد تحول منذ زمن إلى استقلال رسمي وفعلي، بعد أن أدى ضيق الأفق والتعصب القومي الذي ميز النظام العراقي إلى التهديد بتقسيم العراق. أما المفارقة المضحكة المبكية فتتمثل في أن سياسات صدام حسين التي هددت وحدة العراق كانت هي نفسها التي ظن الرئيس العراقي وهو يصممها وينفذها أنه بذلك إنما يحمي استقلال ووحدة الأراضي العراقية.

وفي رواندا نجد مثالا آخر للمآسي والمعاناة المترتبة على التمييز العرقي والقومي. ففي رواندا التي يبلغ عدد سكانها أكثر قليلا من ثمانية ملايين نسمة، تعيش جماعتان ثقافيتان هما

الهوتو الذين يمثلون الأغلبية الكبيرة من السكان، بما نسبته ٨٠% من سكان البلاد، بينما يمثل السكان من التوتسي ١٩% من السكان. وبهذا الصدد، فإن الوضع في رواندا يشبه إلى حد كبير جدا الوضع في جارتها بوروندي ذات الستة ملايين نسمة، منهم ٨٥% من الهوتو، و١٤% من التوتسي.

في رواندا، قامت الأغلبية من الهوتو بانتفاضة كبرى في عام ١٩٥٩، وقاموا بطرد مئات الآلاف من التوتسي إلى خارج البلاد، فتوزعوا كلاجئين في البلاد المجاورة خاصة الكونجو وأوغندا. وفي عام ١٩٩٠ عاد اللاجئون من التوتسي إلى رواندا، ولكن بعد أن نظموا أنفسهم في جيش قوي قام بغزو البلاد، مما أدى إلى دخول البلاد في حرب أهلية استمرت بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٣، عندما تم التوقيع في الرابع من أغسطس من ذلك العام على اتفاقية سلام لإنهاء الحرب الأهلية وإنشاء حكومة وحدة وطنية تقوم على عودة المطرودين من التوتسي والتمثيل المتكافئ للأحزاب السياسية والجماعات المختلفة، وإقامة نظام قضائي مستقل . غير أن ميراث العداء لم يسمح بنجاح هذه الخطة. فبينما سادت بين التوتسي العائدين مشاعر الزهو والانتصار إلى الدرجة التي ألقت الرعب في صفوف الأغلبية من الهوتو، فإن المتطرفين من الهوتو قاوموا تحقيق المصالحة ورفضوا أنْ يجري التعامل مع التوتسي كمواطنين لهم حقوق متساوية.

اعتبر المتطرفون الهوتو عملية المصالحة وتحقيق السلام التي قادها رئيس رواندا نوعا من التسليم للأعداء من التوتسي، واعتبروا الرئيس هاباريمانا الذي قاد البلاد نحو المصالحة

والسلام خائنا يستحق القتل. وفي السادس من أبريل عام ١٩٩٤، وقبل أيام من تنصيب حكومة الوحدة الوطنية الجديدة، قام المتطرفون من الهوتو بإسقاط الطائرة التي كان يستقلها رئيسا بوروندي ورواندا ففقدا حياتهما. ثم بدأ المتطرفون الهوتو في شن مذابح جماعية واسعة النطاق ضد المواطنين من التوتسي.

استمرت المذابح لمدة ثلاثة أشهر كانت بمثابة الكابوس الثقيل. ففي مذبحة لم تشهد لها البشرية مثيل من قبل، تم قتل أكثر من نصف مليون من التوتسي. لكن المتمردين التوتسي العائدين من المنفى أعادوا تنظيم أنفسهم بسرعة، ونجحوا في نهاية الأشهر الثلاثة في الانتصار على المتطرفين الهوتو. فكانت المفارقة الكبرى، فالمذابح التي بدأها الهوتو لمنع التوتسي من الحصول على حقوق متساوية في بلادهم انتهت بتمكين التوتسي من السيطرة الكاملة على البلاد. وبالطبع فإن لنا أن نتوقع ما حدث منذ ذلك الحين، فمشاعر الكراهية والحقد المتراكمة لم تتح لحكومة التوتسي العائدة نسيان الماضي وإعادة المساواة والسلام إلى البلاد التي دخلت في مرحلة جديدة من التمييز العنصري والكراهية، كان ضحاياها هذه المرة من الهوتو، وإن كانت الأمور لم تصل أبدا إلى المستوى الذي وصلت إليه في الأيام السوداء من عام ١٩٩٤.

وتقدم باكستان نموذجا من الصراعات تختلط فيه عناصر القومية والدين. فمنذ القرن الثامن عشر كانت البلاد المعروفة اليوم بباكستان جزءا من الهند التي كانت من ممتلكات

الإمبراطورية البريطانية. ومنذ القرن التاسع عشر بدأ سكان الهند في التفكير في مستقبل بلادهم ومستقبلها بعد رحيل البريطانيين. وفي ظل وجود جماعات هندوسية متطرفة تصورت هند المستقبل المستقلة كدولة هندوسية، يُجبَر فيها المسلمون على التحدث باللغة الهندية بدلا من الأوردو، وعلى عدم ممارسة شعائرهم الدينية بالقرب من المعابد الهندوسية أو في المناطق التي يسيطر عليها الهندوس، وعلى تحريم ذبح المسلمين للأبقار. في ظل وجود مثل هذه الجماعات الهندوسية المتطرفة ثارت مخاوف المسلمين، وخلص قادة المسلمين الهنود إلى استحالة التعايش بين المسلمين والهندوس في دولة واحدة، وبالتالي حتمية انفصال المناطق الإسلامية لتكون دولة مستقلة. لم تفلح محاولات أغلبية النخبة الهندية المنظمة في حزب المؤتمر المعارض لآراء الجماعات الهندوسية المتطرفة في تهدئة مخاوف مسلمي الهند، خاصة أن قيادة حزب المؤتمر ترددت في تقديم الدليل العملي على حسن نواياها تجاه المسلمين، خوفا من أن يؤدي الاعتراف بأن مشكلة الانقسام الديني/القومي في البلاد تستدعي حلا سياسيا إلى تعميق المشكلة وليس حلها. وعندما حل موعد رحيل البريطانيين عن الهند عام ١٩٤٧ تم تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين هما الهند ذات الأغلبية الهندوسية، وباكستان ذات الأغلبية المسلمة، التي حملت إسم جمهورية باكستان الإسلامية، والتي تأسست كدولة للمسلمين في شبه القارة الهندية.

وبالطبع فإن هذا الانقسام لم يكن بالأمر السهل. فقد صاحبه الكثير من جرائم التخريب والقتل من جانب المسلمين في

باكستان ضد مواطني باكستان من الهندوس، ومن جانب الهندوس في الهند ضد مواطني الهند من المسلمين. ففي نظر الهنود كان الباكستانيون رمزا للخيانة وتفتيت الوطن، أما بالنسبة للباكستانيين، فإن الهنود مثلوا الجار الوثني ذا القوة والأغلبية العددية الذي يمثل تهديدا حقيقيا. سعى المتطرفون من الجانبين إلى تكوين أمة نقية ليس فيها بقايا من الشرور التي يمثلها أبناء الشعب الآخر، فتم الضغط على ملايين الهنود في باكستان، وعلى المسلمين في الهند لإجبارهم على الرحيل إلى الجانب الآخر من الحدود، فبلغ عدد المهاجرين على جانبي الحدود أكثر من عشرة ملايين مواطن أجبروا على ترك ديارهم وممتلكاتهم، في تطبيق مبكر لسياسة التطهير العرقي التي جرى تنفيذها بعد ذلك في البوسنة.

تكونت دولة باكستان الناشئة من المناطق ذات الأغلبية الإسلامية في شبه القارة الهندية. وقد حدث أن كان المسلمون متمركزين في القسم الشمالي الغربي والقسم الشمالي الشرقي من شبه القارة الهندية، فتكونت دولة باكستان من قسمين لا يوجد بينهما أي اتصال بري، ويفصل بينهما ١٦٠٠ كيلومتر من الأراضي التابعة للهند. وبينما مثل سكان القسم الشرقي من باكستان، أو ما عُرف بباكستان الشرقية، ٥٦% من سكان البلاد، فإن أبناء باكستان الغربية سيطروا على الحكم، كما احتكروا القسم الأكبر من مخصصات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

غير أن الطامة الكبرى تمثلت في محاولة النخبة المسيطرة في باكستان الغربية فرض الأوردو كلغة قومية على سكان

القسم الشرقي من باكستان، الذين كان عددهم أكبر من سكان القسم الغربي، والذين يتحدث أغلبهم اللغة البنجالية، الأمر الذي أدى في عام ١٩٥٢ إلى اندلاع أول صدام بين الجماعات الثقافية المختلفة في باكستان. ومنذ ذلك الحين بدأت دعاوى انفصال شرق باكستان عن غربها في الظهور. غير أن هذه الدعوات لم تكتسب تأييدا قويا حتى مطلع السبعينيات من القرن العشرين. ففي عام ١٩٧٠ تعرضت باكستان الشرقية لموجة عاتية من الأعاصير والفيضانات أسفرت عن مقتل ٢٦٦ ألفا من السكان. واتهم الباكستانيون الشرقيون الحكومة المركزية التي كان مقرها في باكستان الغربية بالتخاذل في مساعدة المواطنين، وبدأت أعمال العنف في الاندلاع.

وفي نفس العام ١٩٧٠ انتخبت باكستان بقسميها جمعية وطنية جديدة كان الغرض منها وضع دستور جديد للبلاد. وكان الباكستانيون الشرقيون قد نظموا حملات تهدف إلى تضمين الدستور المقترح نصا على حقهم في المعاملة المتساوية مع أهل القسم الغربي من باكستان، وأن تمنح باكستان الشرقية درجة أعلى من الاستقلال الذاتي. غير أن الرئيس الباكستاني أيوب خان قام في عام ١٩٧١ بإلغاء الاجتماع المنتظر للجمعية الوطنية، وهو القرار الذي أسفر عن وقوع اضطرابات في باكستان الشرقية تطورت إلى مستوى حرب أهلية شاملة، دخلها الجيش الباكستاني في محاولة لإعادة الهدوء للقسم الشرقي من البلاد، غير أن الأمور تطورت بسرعة، وتم إعلان استقلال باكستان الشرقية، تحت اسم جمهورية بنجلاديش، في ٢٦ مارس ١٩٧١.

وعندما حاولت الحكومة قمع الحركة الانفصالية في باكستان الشرقية عن طريق استخدام القوة المسلحة العارية وبقسوة، تدخلت الهند إلى جانب المطالبين باستقلال بنجلاديش، وانتهت الحرب بعد أسبوعين من القتال العنيف وأعمال العنف بهزيمة باكستان وتثبيت أقدام جمهورية بنجلاديش الوليدة، بعد أن مات أكثر من مليون مواطن ضحية للحرب وأعمال العنف.

وهكذا، فإنه كما أدى تردد قيادة حزب المؤتمر الهندي في التعامل الإيجابي مع مشكلة الانقسامات الدينية والقومية إلى تقسيم شبه القارة الهندية، فإن الإجراءات التي اتخذها الرئيس الباكستاني أيوب خان لقمع التنوع والاختلافات داخل باكستان من خلال قيامه بتعطيل أعمال الجمعية الوطنية المنتخبة، ثم شن الحرب على باكستان الشرقية، كانت هي بالضبط نفس الإجراءات التي أدت إلى تقسيم باكستان ذاتها.

٣ - مأساة تراجع التسامح في يوغوسلافيا :

وتقدم يوغوسلافيا نموذجا آخر للصراعات والكوارث التي يمكن أن تنتج عن الفشل في تثبيت دعائم التسامح والتعايش بين الجماعات العرقية والقومية والدينية المختلفة. تكونت يوغوسلافيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى كدولة متعددة القوميات. وقد تعرضت يوغوسلافيا للتفكك في أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث جرى اقتطاع أقسام كبيرة منها تم ضمها إلى ألمانيا وإيطاليا وبلغاريا، غير أن يوغوسلافيا استعادت استقلالها ووحدتها بعد هزيمة ألمانيا وحلفائها في الحرب.

تكونت يوغوسلافيا الجديدة كدولة اتحادية تضم عددا من الجمهوريات بلغ عددها ست. كما ضمت ثماني قوميات، تركز أبناء خمس منها في جمهوريات حملت أسماءها، وهي صربيا ومونتينجرو - المعروفة في الكتابات العربية باسم الجبل الأسود- وكرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا. أما الجمهورية السادسة فهي جمهورية البوسنة والهرسك، التي ضمت ثلاث جماعات دينية/قومية، أكبرها هم المسلمون بنسبة ٤٤%، ثم الصرب بنسبة ٣١%، وأخيرا الكروات بنسبة ١٧%. كما ضمت يوغوسلافيا قوميتين إضافيتين هما الألبان، الذين مثلوا ٩٠% من السكان في إقليم كوسوفا، وقومية صغيرة تركزت في إقليم فيوفودينا. وقد تمتع الإقليمان الأخيران بالاستقلال الذاتي ضمن جمهورية صربيا.

كما كان يبدو على السطح، فإن الأمور في يوغوسلافيا كانت تسير سيرا حسنا طوال الفترة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٨٠ عندما توفي جوزيب بروز تيتو، مؤسس يوغوسلافيا الجديدة ورئيسها طوال هذه الفترة. ولد تيتو في كرواتيا من أم سلوفينية وأب كرواتي. ومع أنه لم يكن ينتمي إلى القومية الصربية صاحبة الأغلبية في يوغوسلافيا، إلا أن دوره في تحرير البلاد من الاحتلال النازي منحه من الشرعية والشعبية ما مكنه من حكم البلاد دون تحد ، غير أن أي شخص آخر لم يكن يمكنه أن يقود يوغوسلافيا متعددة القوميات، لذلك نص الدستور اليوغوسلافي على أنه بعد وفاة تيتو فإن رئاسة البلاد ستوضع في يد مجلس رئاسي يتكون من ثمانية أفراد هم ممثلو جمهوريات يوغوسلافيا الست، بالإضافة

إلى ممثلين لإقليمي كوسوفا وفيوفودينا المتمتعين بالحكم الذاتي. كما نص الدستور على أن يتبادل ممثلو الجمهوريات الست رئاسة المجلس الرئاسي في دورات مدة كل منها عام واحد.

كان شرط استمرار الجمهورية اليوغوسلافية بنجاح هو استمرار قيم التسامح والقبول بين الجماعات القومية المختلفة، غير أن الفترة التي أعقبت وفاة تيتو شهدت تصاعدا في مشاعر التعصب القومي لدى الصرب. فقد بدأ ينتشر بين الصرب اعتقاد بأنهم قد حرموا من حقهم الطبيعي في قيادة يوغوسلافيا باعتبارهم الجماعة القومية الأكبر فيها، وبأنهم يتحملون الكثير من التكلفة المالية لتمويل الاتحاد وأنشطته التي يستفيد منها أبناء القوميات الأخرى. وكان يمكن التغلب على هذه المشاعر السلبية ببعض الإصلاحات، وخاصة إذا توحدت النخبة السياسية الصربية وراء الموقف الصحيح الذي يدعو لتدعيم الاتحاد بتدعيم الاندماج والتعايش بين أبنائه من القوميات المختلفة.

غير أن بعض أعضاء النخبة السياسية في صربيا اكتشف أنه يمكنه ركوب موجة التعصب القومي لتحقيق مكاسب سياسية تساعده على ارتواء ظمئه للسلطة. كان هذا هو سلوبودان ميلوسيفتش، الذي أصبح منذ عام ١٩٨٤ رئيسا لفرع الحزب الحاكم في العاصمة بلجراد. راح ميلوسيفتش يغذي مشاعر التعصب والعداء القومي بين الصرب. وفي عام ١٩٨٧ نجح ميلوسيفيتش في اكتساب شعبية هائلة عندما زار كوسوفا ذات الأغلبية الألبانية، والتي يعتبرها القوميون الصرب كعبتهم القومية لأنها شهدت ميلاد أول دولة صربية في القرن الثالث عشر الميلادي. خطب ميلوسيفيتش أمام حشد من الصرب،

ووعدهم بتخليصهم من الظلم القومي الذي يتعرضون لـــه مــن جانب الأغلبية الألبانية في كوسوفا، فــأجج مشــاعر التعصــب القومي الصربي، وخلق لنفسه شعبية لم يتمتع بـــها أي زعيــم صربي آخر منذ سنوات طويلة.

كانت موجة العداء والتعصب القومي الصربي التي أطلقـــها سلوبودان ميلوسيفيتش كافية لحمله في عام ١٩٨٧ إلـــى مقعــد رئاسة الحزب الحاكم في صربيا. ومن هذا الموقع، وفي مــارس من العام التالي، قام ميلوسيفيتش بإلغاء وضعية الاستقلال الذاتــي التي تمتع بها إقليما كوسوفا وفيوفودينا، برغم عـــدم دســتورية هذه الخطوة. وقد كان لهذا القرار غير الدستوري آثار دراميـــة. فبينما تم القضاء على الوضعية الخاصة لكوســوفا وفيوفودينــا، فإنهما احتفظتا بممثليهما في المجلس الرئاســـي، ولكــن هــذان الممثلان – بعد فرض السيطرة الصربية – كانــا قــد أصبحــا مجرد صنائع لميلوسيفيتش، فضمنت صربيا تـــأييد الإقليميــن، بالإضافة إلى تأييد جمهورية الجبل الأســود المتحالفــة معــها، وأصبح للمتعصبين من القوميين الصرب سيطرة مضمونة علــى نصف مقاعد المجلس الرئاسي الثمانية، فقضت هذه التطــورات على الأساس السياسي ليوغوسلافيا كجمهورية اتحاديـــة قائمــة على تحقيق التوازن بين مكوناتها.

أتقن القوميون الصرب المتعصبون فنون التهييج والتحريــض الجماهيري التي استخدموها لتعبئــة وحشــد تــأييد المواطنيــن الصرب لهم، واستخدموا في هذا السبيل كـــل أســاليب إثــارة التعصب القومي الممكنة. لعبت الصحافة الصربية دورا مشهودا في هذا المجال، وذلك بمبالغتها فـــي التركــيز علــى المذابــح

والمآسي التي تعرض لها الشعب الصربي عبر تاريخه، بما في ذلك ما جرى منها على يد جماعات انتمت إلى قوميات تشارك الصرب الاتحاد اليوغوسلافي. وروجت هذه الصحافة لنظرية تقول بأن الشعب الصربي كان طوال تاريخه ضحية لمؤامرة من جانب الكاثوليكية والإسلام وألمانيا، بل وحتى من جانب مؤسسات الشيوعية الدولية. فالكاثوليكية والإسلام هي ديانات عالمية تناصب صربيا العداء بسبب مذهبها الأرثوذكسي الذي تتوحد فيه الكنيسة مع القومية. والشيوعية هي عقيدة أممية دولية معادية للقومية، ولهذا فإنها تسعى لكسر الروح القومية العالية لدى الصرب. أما ألمانيا فإنها كانت طول الوقت منحازة لكرواتيا وسلوفينيا على حساب صربيا. وهكذا رسمت الصحافة الصربية صورة مغلوطة لمؤامرة عالمية تستهدف صربيا وشعبها، الذي عليه أن يهب لمقاومة المؤامرة والمتآمرين.

لم تكن الكتابة الصحفية المليئة بالوقائع والتفسيرات والنظريات المغلوطة والمبالغات هي أسلوب المتعصبين الصرب الوحيد في تهييج الرأي العام، فقد كانت هناك أساليب أخرى ربما كانت أكثر إثارة للعواطف ومشاعر الخوف والكراهية. ومن ذلك ما حدث عام ١٩٨٩ الذي صادف الذكرى الستمائة لمعركة كوسوفا التي هُزم فيها الجيش الصربي أمام الأتراك. قام المتعصبون الصرب بتنظيم احتفالات حاشدة بهذه الذكري، وبلغت الاحتفالات ذروتها في مظاهرة شارك فيها مليون صربي، جرى تنظيمها في كوسوفا التي لا يوجد فيها سوى أقلية صربية صغيرة. وكانت هذه الاحتفالات مناسبة للتحريض ضد الألبان من سكان كوسوفا وضد القوميات

اليوغوسلافية الأخرى. كما جرى تنظيم مظـــاهرات للاحتفـــال بذكرى الضحايا الصرب الذين سقطوا أثناء الحـــرب العالميـــة الثانية على يد جماعة من الكروات كانت متعاونة مع الاحتـــلال النازي، فتم إخراج جثث الضحايا الصرب من المقابر الجماعيـــة التي كانوا مدفونين فيها، ليعاد دفنهم مرة أخرى في احتفـــالات مهيبة. بل إن جثث بعض الشـــخصيات المرموقـــة مـــن بيـــن الضحايا جرى الطواف والاحتفال بها في أنحـــاء مختلفـــة مـــن البلاد قبل إعادة دفنها. كل هذا في أجواء لـــم تســـتهدف ســـوى تعبئة الشعور القومي الصربي ضـــد القوميـــات اليوغوســـلافية الأخرى.

وبينما أدت هذه التطورات إلى توسيع نطاق موجة التعصـــب القومي الصربي إلى الحد الذي كان كافيـــا لحمـــل ســـلوبودان ميلوسيفيتش إلى مقعد رئاسة جمهورية صربيا في عـــام ١٩٩٠، فإنها عمقت مخاوف أبناء القوميات اليوغوسلافية الأخرى تجـــاه نوايا الصرب لفـــرض الهيمنـــة علـــى كافـــة أقســـام الاتحـــاد اليوغوسلافي.

وفي الحقيقة، فإن فرض الهيمنـــة الصربيـــة علـــى أبنـــاء القوميات اليوغوسلافية الأخرى لم يكن هو خيار ميلوســـيفيتش الوحيد. فقد كان ميلوسيفتش يسعى فعلا لتحقيق هـــذا الـــهدف، ولكن كانت لديه أيضا خطة بديلة إذا فشل فـــي تحقيـــق هدفـــه الأول. أما خطته البديلـــة فقـــد تلخصـــت فـــي هـــدم الاتحـــاد اليوغوسلافي واستبداله بصربيا الكبرى، ذلك الحلم الذي طالمـــا راود القوميين الصرب منذ القرن التاسع عشر. وطبقا لمشـــروع صربيا الكبرى فإنه لا حاجة لصربيا أن تتعايش في دولة واحـــدة

مع قوميات أخرى، حتى ولو كانت للقومية الصربية فيها اليد العليا بحكم تفوقها العددي. وإنما بدلا من ذلك لابد من إقامة دولة صربيا الكبرى التي يعيش فيها الصرب وحدهم، ولكن بعد أن يُضم إليها أقسام واسعة تتبع الجمهوريات والأقاليم الأخرى. وقد كان إلغاء وضع الاستقلال الذاتي لكوسوفا وفيوفودينا الواقعتين ضمن جمهورية صربيا مقدمة لتحقيق ذلك الحلم.

كان لهذا الحلم أن يثير المخاوف، وبالتالي المشاعر القومية لدى أبناء القوميات الأخرى، خاصة بسبب وجود أقليات كبيرة من الصرب في أغلب الجمهوريات والأقاليم اليوغوسلافية الأخرى. فقد مثل الصرب - طبقا لإحصاء عام ١٩٨١- ١٣,٢% من سكان كوسوفا، ٥٤,١% من سكان فيوفودينا، ١١,٥% من سكان كرواتيا، ٣٢,٢٠% من سكان البوسنة والهرسك، الأمر الذي أثار قلق أبناء القوميات الأخرى من الأطماع المرتبطة بحلم تحقيق صربيا الكبرى.

كانت سلوفينيا الهدف الأول للتوسعية والتعصب الصربي الذي قاده ميلوسيفيتش. ففي ديسمبر ١٩٨٩ حاول الزعيم الصربي المتعصب الإطاحة بحكومة سلوفينيا عن طريق دفع حشد من الصرب للتظاهر في شوارع العاصمة ليوبليانا. ولكن بسبب العدد المحدود للصرب في سلوفينيا فإن هذه الخطة لم تنجح، فكان أن قام ميولوسيفتش بفرض المقاطعة الاقتصادية على سلوفينيا في محاولة منه لتركيع الحكومة القائمة فيها.

دارت عجلة التعصب القومي بسرعة. وفي الانتخابات التي جرت في مارس-أبريل ١٩٩٠، وصل إلى الحكم في كرواتيا متعصب قومي شبيه إلى حد كبير بسلوبودان ميلوسيفيتش هو

فرانجو توجمان. فاز توجمان وحزبه في الانتخابات على برنامج يقوم على التعصب القومي. فقد أسس توجمان وحزبه دعايتهما الانتخابية على العداء للصرب، فأخذ ينتقد ما اعتبره سيطرة صربية على كثير من الوظائف المهمة في كرواتيا، وبالفعل فإنه بمجرد فوزه قام توجمان بطرد الكثير من الموظفين الصرب من وظائفهم. كما أدخل تعديلا على دستور كرواتيا أصبح بمقتضاه الصرب مواطنين من الدرجة الثانية. لقد روج توجمان وأنصاره لكراهية الصرب بشكل مخيف ومثير للرعب، ولعل ذلك يتضح عندما نقرأ الكلمة التي ألقاها فلاديمير سيكس، أحد القادة البارزين في حزب توجمان، أثناء الحملة الانتخابية في منطقة يسكنها خليط من الصرب والكروات. قال سيكس "إذا فزنا فإنه لن يكون هناك أي صربي، أما إذا فازوا فإنه لن يكون هناك أي كرواتي". كانت مثل هذه الدعاية العدائية المتعصبة هي السلعة الرائجة في يوغوسلافيا في تلك الأيام. وباتت الأحاديث والدعاية المتطرفة الصادرة عن كل طرف سببا في تأجيج المخاوف لدى الأطراف الأخرى. وبات كل واحد يتخذ مما يقوله ويفعله الآخر حجة لتكريس تعصبه. وتخيل كل طرف أن تعصبه هو مجرد دفاع مشروع عن النفس ورد فعل لعداء الآخرين. فضاعت الحقيقة، وكسب المحرضون والجائعون للسلطة، وسقطت أمم متحضرة ذات تاريخ عريق، مثل الأمم التي كونت يوغوسلافيا، في أسر وحش التعصب والكراهية.

مع صعود التعصب القومي على كل الجبهات أصبح مستقبل الاتحاد اليوغوسلافي موضع شك، وظهرت بقوة دعوات

للاستقلال عن الاتحاد في كل من سلوفينيا وكرواتيا. ولم يكن سلوك سلوبودان ميلوسيفيتش وحكومته من النوع الذي يمكنه تهدئة مثل هذه النزعات. على العكس، فإنه تصرف بكل الطرق الممكنة لتأجيجها وصب الزيت على نارها. وكما أشرنا قبل ذلك، فقد قامت صربيا بفرض الحصار الاقتصادي على سلوفينيا، الأمر الذي أفقد الاتحاد معناه. أما في كرواتيا، فقد بدأت الأقلية الصربية في ربيع عام ١٩٩٠ في التمرد بدعم من الحكومة في صربيا، فقام المتمردون بإقامة حواجز الطرق، ونزع أسلحة رجال البوليس الكروات. وفي ٣١ مارس ١٩٩١ سقطت أول ضحية كرواتية على يد المتمردين الصرب، وفي الثاني من مايو وقعت أول مذبحة، حيث جرى قتل مجموعة من رجال البوليس الكروات على يد المتمردين.

أما على مستوى الحكومة الاتحادية، فلم يتورع ميلوسيفيتش وأنصاره عن التضييق على القوميات الأخرى. فالمخصصات المالية التي حددتها الحكومة الفيدرالية للتحويل لصالح كرواتيا جرى الاستيلاء عليها لصالح صربيا. وفي الخامس عشر من مايو، وعندما حل موعد تخلي الرئيس الصربي للاتحاد اليوغوسلافي عن منصبه وتسليمه لممثل كرواتيا الذي حل دوره لتولي هذا المنصب وفقا لنظام التبادل المعمول به، رفض الصرب تسلم ممثل كرواتيا لمهام المنصب، الذي ظل شاغرا، بحيث أصبح الاتحاد اليوغوسلافي بلا رئيس، الأمر الذي كان إعلانا باستحالة استمرار يوغوسلافيا كدولة موحدة، فقامت سلوفينيا وكرواتيا في الخامس والعشرين من يونيو ١٩٩١ بإعلان استقلالهما. وعند هذه اللحظة تدخل الجيش الاتحادي

الخاضع للسيطرة الصربية، ليس بغرض منع استقلال كرواتيا وسلوفينيا، ولكن لكي يقتطع منهما الأقسام التي يدعي القوميون الصرب تبعيتها لهم، فكان أن بدأت حرب تفكك يوغوسلافيا.

أما بالنسبة لجمهورية البوسنة والهرسك، فقد فرض عليها وضعها كجمهورية متعددة القوميات أن تتصرف بطريقة مختلفة. فالبوسنة هي نموذج مصغر من يوغوسلافيا الوطن الأكبر، بحيث أن انهيار النموذج متعدد القوميات في يوغوسلافيا كان له أن يؤدي بالضرورة إلى انهيار النموذج المماثل في البوسنة. لذلك حاول سكان البوسنة، خاصة من المسلمين والكروات، منع انهيار الاتحاد اليوغوسلافي. وكان القرار الذي اتخذوه هو البقاء ضمن الاتحاد بشرط بقاء كرواتيا وسلوفينيا داخله، لأنهم تخوفوا من أن يؤدي خروج هاتين الجمهوريتين إلى تمكين صربيا من فرض سيطرتها على الاتحاد والاستفراد بالجمهوريات الأخرى القليلة الباقية، ومن بينها البوسنة.

شهد النصف الأول من عام ١٩٩١ جهودا مكثفة من جانب رئيسي البوسنة ومقدونيا علي عزت بيجوفتش وكيرو جليجوروف للتوصل إلى حل ديمقراطي للصراع بين صربيا من ناحية وكرواتيا وسلوفينيا من ناحية أخرى، غير أن فشل هذه الجهود أدى إلى إعلان استقلال البوسنة في مارس ١٩٩٢، وتبعتها في ذلك جمهورية مقدونيا. وكرد فعل لهذا القرار سيطرت الجماعات المسلحة من صرب البوسنة على الأقاليم التي تدعي تبعيتها للصرب داخل البوسنة. وفي نفس الشهر بدأ الجيش اليوغوسلافي تدخله في البوسنة، فبدأت حرب طويلة

مليئة بوقائع الرعب والفزع في إطار حملة التطهير العرقي، والتي شملت جرائم قتل جماعي وحرق ممتلكات واغتصاب نساء. شن الصرب هذه الحرب ضد مسلمي وكروات البوسنة، في إطار سعيهم لإجلائهم عن المناطق الصربية المزعومة لتحويلها إلى مناطق خالصة للصرب. واستمرت هذه الحرب الشرسة وغير الإنسانية لأكثر من ثلاثة أعوام، فلم تنته إلا في ١٤ ديسمبر عام ١٩٩٥، بعد أن فرض المجتمع الدولي حصاراً اقتصادياً محكماً علي يوغوسلافيا، وبعد أن تدخل حلف الأطلنطي بقواته لوقف الحرب وتسهيل التوصل لاتفاق سلام.

أما في نهاية التسعينيات فقد انتقلت بؤرة الصراع إلى إقليم كوسوفا ذي الأغلبية الألبانية. ومرة أخرى شن الصرب حملة للتطهير العرقي لطرد الألبان من الإقليم، ومرة أخرى أيضا لم تنته الحرب إلا بعد أن تدخل حلف الأطلنطي لإجبار الصرب على وقف الحرب.

كان استمرار يوغوسلافيا مرهونا باستمرار قدرة الجماعات القومية المختلفة على التعايش في سلام وتعاون، غير أن تطورات سلبية حالت دون ذلك. فقد بدأت النزعات القومية في التزايد بين أبناء الأقاليم المختلفة، ولكن هذه النزعات كانت على أشدها في صربيا أكبر جمهوريات الاتحاد اليوغوسلافي، والتي لا يمكن للاتحاد، بدون تفهم وتحمس أبنائها للاتحاد والفلسفة التي قام عليها، أن يستمر.

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام نفس ظاهرة التطرف القومي والعرقي التي يطلقها بعض المهووسين مستغلين هذه

الظروف أو تلك، فيطلقون حملات التحريض والكراهية والترويع، ويقودون شعوبهم نحو معارك باهظة الثمن. أما بقية الظاهرة، فهي أن حملات المهووسين المتعصبين - في كل مرة تقريبا- تعود عليهم وعلى شعبهم بالخسارة الكبيرة. فالقوميون الصرب الذين شنوا حملة لتأكيد السيطرة الصربية على يوغوسلافيا، انتهوا بتدمير يوغوسلافيا ذاتها، بعد أن انفصل عنها أغلب أعضائها من غير الصرب. ومع أنهم رضوا بصربيا الكبرى بديلا عن يوغوسلافيا الكاملة، إلا أنهم عجزوا عن تحقيق هذا الهدف أيضا بعد أن ضاعت منهم الأقاليم الصربية في كرواتيا والبوسنة، وبعد أن أصبحت كوسوفا، التي طالما اعتبروها قدس الأقداس الصربي، خاضعة للإدارة الدولية بقيادة من اعتبرهم المتطرفون الصرب أعدى أعدائهم من الدول الأعضاء في حلف الأطلنطي.

٤ - آثار فادحة لغياب التسامح :

هل مازالت هناك حاجة لمزيد من الأمثلة للبرهنة على فداحة الجناية التي يرتكبها المتعصبون الذين يفتقدون التسامح على أهلهم ووطنهم؟.. ربما ... فلننظر إذاً إلى لبنان.

انقسم المجتمع السياسي اللبناني منذ فترة مبكرة بين قسم يرى لبنان جزءا من العالم العربي الأكبر يشاركه الآلام والطموحات، وبين قسم آخر يرى في الهوية اللبنانية شيئا خاصا متميزا ويدعو للانعزال عن العالم العربي. ليس في هذا الخلاف في حد ذاته مشكلة، بل إنه يمكن أن يكون علامة صحية على ازدهار المجتمع الثقافي والسياسي وحيويته. وقد

قام لبنان على أساس توازن دقيق بين هذين الاتجاهين، خاصة وأن هذين الاتجاهين قد تطابقا إلى حد كبير مع الانقسامات الطائفية في لبنان، حيث كان الموارنة يميلون للتركيز على هوية لبنان الخاصة وعلى تميزه وعزلته عن العالم العربي، بينما كان اللبنانيون السنة والروم الأرثوذكس يميلون للتركيز على الانتماء العربي للبنان. أي أن النظام اللبناني قام على توازن بين الطوائف والتيارات السياسية المختلفة.

منذ مطلع السبعينيات زاد الوجود الفلسطيني في لبنان، بعد أن جرى طرد منظمات المقاومة الفلسطينية من الأردن. وقامت المقاومة الفلسطينية بتحويل لبنان إلى قاعدة للكفاح المسلح ضد إسرائيل، الأمر الذي وضع لبنان بشكل غير مسبوق في قلب التفاعلات السياسية العربية، بما أقلق أنصار عزلة لبنان عن العالم العربي. وقد زاد من هذا القلق أن الموارنة في لبنان قد تخوفوا من أن تؤدي زيادة وجود ونفوذ الفلسطينيين - وأغلبهم من المسلمين السنة- إلى تغيير التوازن الطائفي في لبنان لغير صالح الموارنة والمسيحيين.

أدت هذه الأوضاع إلى نمو الاتجاهات الانعزالية والطائفية المتشددة بين الموارنة، وتركزت هذه الاتجاهات بين أعضاء حزب الكتائب، الذي بادر بتكوين جماعات مسلحة بغرض موازنة ومقاومة الوجود الفلسطيني، وبدعوى حماية سيادة لبنان ضد سيطرة الغرباء الفلسطينيين. تحولت المخاوف المارونية إلى عنصرية وتعصب، ورأى البعض من هؤلاء المتعصبين الطائفيين أن العمل لطرد الفلسطينيين من لبنان بات ضروريا، فكانت بداية الحرب الأهلية اللبنانية. ففي ١٣ أبريل عام ١٩٧٥

تعرض أوتوبيس يقل مجموعة من المدنيين الفلسطينيين لإطلاق النار، أثناء مروره بحي "عين الرمانة" ذي الأغلبية المارونية، الأمر الذي أسفر عن مقتل ٢٦ فلسطينيا.

سارعت الأحزاب اللبنانية ذات الاتجاهات العروبية للتضامن مع المقاومة الفلسطينية، فيما سُمي التحالف الوطني - الفلسطيني، ودارت بين الفريقين معارك تصاعدت خطورتها تدريجيا، وكاد الجانب الوطنى - الفلسطيني يحقق النصر على الكتائب وحلفائها. لولا تدخل الجيش السوري في صيف عام ١٩٧٦ لحماية الموارنة.

لم يؤد التدخل السوري لإنهاء الحرب الأهلية، على العكس، فإن سوريا حرصت على الإبقاء على حالة من التوازن تمنع انتصار أي طرف على الآخر، وأخذت تبدل حلفاءها في لبنان تبعا لمصالحها وتبعا للظروف المتغيرة ولمقتضيات الحفاظ على التوازن بين الجماعات المختلفة. وفي أجواء الحرب الأهلية المستعرة شعرت كل طائفة لبنانية بالخطر وبحاجتها لامتلاك تنظيم مسلح يحميها، فظهرت جماعات طائفية مسلحة لم تكن موجودة قبل الحرب، فسادت البلاد فوضى عارمة. بل إن الجيش اللبناني نفسه تعرض للتفكك. فانشقت بعض ألوية الجيش، واختارت لنفسها هذا الجانب من الصراع أو ذاك، تبعا لطبيعة الانتماءات الطائفية الغالبة على كل لواء. فبينما انحاز اللواء الثاني للكتائب والمارونيين، انحاز اللواء السادس للشيعة، بينما انحازت قوات الجيش المعسكرة في بلدة حمانا الدرزية للدروز، وهكذا.

أكثر من هذا، فإن قسما من الجيش اللبناني بقيادة اللواء سعد حداد قرر الانحياز لإسرائيل باعتبارها الخصم الأكبر للفلسطينيين، فقام بتأسيس جيش لبنان الجنوبي. وقد وجد هذا القسم من الجيش اللبناني في الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان عام ١٩٧٨، ثم في الاجتياح الإسرائيلي للبنان وصولا للعاصمة بيروت عام ١٩٨٢ فرصة مواتية. وعندما أسست إسرائيل منطقة أمنية في جنوب لبنان بعد انسحابها من المناطق الأخرى في البلاد، تولى جيش لبنان الجنوبي السيطرة في الجنوب بدعم وحماية من إسرائيل.

استمرت الحرب الأهلية اللبنانية طوال خمسة عشر عاما، ارتكبت خلالها الكثير من المذابح، لعل أشهرها مذابح تل الزعتر وصبرا وشاتيلا والكرنتينا والمسلخ، حيث راح الكثيرون ضحية للتعصب والكراهية والطائفية المقيتة. وجرى اغتيال زعماء لبنانيين من كافة الاتجاهات والطوائف ضحية لأعمال الانتقام ومحاولات فرض السيطرة. ففقد لبنان زعماء من أمثال كمال جنبلاط وطوني فرنجية وداني شمعون وبشير الجميل ورينيه معوض.

لم تنته الحرب الأهلية اللبنانية إلا في شهر أكتوبر من عام ١٩٩٠، بعدما اطمأنت سوريا إلى أنها قد فرضت سيطرتها على جميع الفئات، فاستخدمت ترسانتها العسكرية القوية لإنهاء المقاومة التي قادها قائد الجيش ميشيل عون، الذي كان يقود المعركة الأخيرة للموارنة اللبنانيين. وبهزيمته، انتهت مرحلة الحرب الأهلية في التاريخ اللبناني، ولكن بعد أن خلفت وراءها مرارات لم يشف منها لبنان حتى الآن: ١٣٣ ألف قتيل، و

٢٠٧ آالاف جريح، و ١٧ ألف مفقود، ١٤ ألف مخطوف، ١٣ ألف معاق، ومليون مهاجر إلى خارج البلاد، و٧٠ ألفا من الأسر النازحة عن بيوتها. كل هذا من اللبنانيين وحدهم، أي بخلاف الفلسطينيين الذين دفعوا ثمنا باهظا هم أيضا.

والغريب أن نتائج الحرب الأهلية اللبنانية كانت بالضبط عكس ما سعي إليه المتعصبون الطائفيون من الموارنة وحلفائهم. فبينما سعى هؤلاء للتخلص من الغرباء الفلسطينيين، فإنهم استقدموا بدلا منهم غرباء آخرين إسرائيليين وسوريين. وبينما سعى المتعصبون الموارنة إلى حماية الوضع المتميز الذي تمتع به الموارنة، فإنهم انتهوا إلى وضع أصبح فيه الشيعة اللبنانيين القوة الرئيسية في البلاد، وتراجعت مكانة الموارنة إلى مستوى غير مسبوق. فهل من دليل أكثر من ذلك على ما يمكن للتعصب أن يجنيه على أصحابه وعلى الأوطان التي ينتمون إليها؟

٥ ـ عنصرية اللون :

تعتبر الكراهية المرتبطة باختلاف لون البشرة وملامح الوجه من أقدم أسباب الصراع وأكثرها سخفا وتهافتا. ومن أمثلة ذلك ما جرى لإخوتنا من البشر ذوي البشرة السوداء. فمنذ القدم تكونت لدى شعوب مختلفة مشاعر احتقار للسود باعتبارهم ينتمون لجنس أدنى وأقل أهلية وذكاء. وظهرت نظريات تعتبر البشرة السوداء نوع من العقاب الإلهي لهؤلاء من البشر الذين عصوا أمر الله، وأنه من المقبول بالتالي أن يتم التمييز ضد السود أو حتى استعبادهم، لأنهم في مرتبة أدنى من

ذوي البشرة الفاتحة، وكنوع من تنفيذ العقاب الإلـــهي الموقـع عليهم. وقد سادت هذه المشاعر لفترة طويلة من التاريخ بســبب نقص المعرفة عن المعنى العلمي لسواد البشرة، وبسبب الجـهل بغياب أي فروق تشريحية أو وراثية ذات مغزى بيــن السـود وغيرهم.

ففي جنوب أفريقيا، ومنذ مطلع القرن السابع عشر، ارتبــط غزو الشعوب البيضاء من هولندا وانجلترا وألمانيـــا بممارســة الاستعباد والتمييز ضد السكان الأصليين من الســود الأفارقــة. وبالرغم من أن العبودية في جنوب أفريقيا قد ألغيت منــذ عــام ١٨١١، بسبب تبعية جنوب أفريقيا للإمبراطوريـــة البريطانيــة التي أصدرت حكومتها في ذلك العام قانونا يلغي العبوديـــة، إلا أن الممارسات التمييزية ضد السود لـــم تتوقــف، حيــث تــم إقصاؤهم عن المشاركة في الحكـــم، وحيــث اســتأثر البيــض بثروات البلاد.

وقد تحولت سياسة التمييز ضد السود إلى سياســة رسـمية للحكومة في جنوب أفريقيا منذ عام ١٩٤٨. ففـــي ذلــك العــام وصل الحزب الوطني ذو الميول العنصرية للحكم، فقام بتطبيــق فلسفته التي قالت بأن الطريقة الوحيدة للتعايش بين الجماعـــات المنتمية إلى أصول عرقية مختلفة هو الفصل بينها. فتم تقســيم سكان البلاد إلى أربع جماعات عرقية هي السود -الذين يمثلـون ٧٥% من سكان البلاد- والبيــض والآســيويون والمخلطــون الناتجون عن الزيجات المختلطة، وصدرت القوانين التي تحــرم اختلاط الأعراق المختلفة في الأحياء السكنية والمدارس وأمـاكن العمل ووسائل المواصلات والمرافق العامة، ومُنع الســود مــن

الدخول إلى الأحياء والمقاطعات المخصصة للبيض، وفُرض على السود العيش في الأقاليم الفقيرة، كما حُرموا من الاستفادة من الموارد الاقتصادية الغنية في البلاد، وتم إقصاؤهم نهائيا عن المشاركة في الحكومة التي احتكرها البيض.

وفي كل الأحوال، فإن الانشغال بتوزيع الناس بين جماعات عرقية ودينية وثقافية ولغوية، وخاصة الاستناد إلى ذلك التقسيم في التمييز بين الأفراد، فيما يتعلق بالحقوق التي لهم أن يتمتعوا بها والواجبات التي عليهم القيام بها، ينطوي على درجة كبيرة من العشوائية والتحكمية. بل إن النظم والمجتمعات التي تأخذ بمثل هذا الأسلوب، وخاصة عندما تبالغ فيه، فإنها تجد نفسها بعد حين مضطرة لارتكاب تصرفات حمقاء تبعث على الاستغراب والضحك في آن معا. وقد كان ذلك واضحا بشكل خاص في جمهورية جنوب أفريقيا في حقبة التمييز العنصري. فقد كان لون البشرة هو المعيار الأساسي للتمييز بين الأفراد، ولم يكن نادرا في ظل هذا النظام أن نجد أخين وقد صنف كل منهما ضمن جماعة عرقية مختلفة بحكم اختلاف لون بشرتهما. ولأن النظام العنصري في جنوب أفريقيا كان يمنع اختلاط الأفراد المنحدرين من أصول عرقية مختلفة من الاختلاط، فإنه كان من الصعب على مثل هذين الأخوين أن يظهرا سويا في الأماكن العامة وإلا تعرضا للملاحقة القانونية.

ومن المفارقات الغريبة المضحكة الأخرى التي وجد النظام العنصري في جنوب أفريقيا نفسه مضطرا لها، الطريقة التي تعامل بها مع رجال الأعمال والسياح اليابانيين. فمنذ الستينيات

عادت اليابان للظهور كقوة اقتصادية مؤثــــرة، وظـــهر رجـــال الأعمال والسياح اليابانيون فـــي عواصـــم ومطـــارات العــالم، وبسبب الأهمية الاقتصادية المتزايدة لليابان، كان من الصعــــب على أي دولة أن تتجاهلهم أو ترفضهم. وفي جنـــوب أفريقيــا، فإن الملامح الآسيوية لليابانيين لم تكن تؤهلهم ســـوى لمعاملـــة تخلو من الاحترام مثلهم في ذلك مثل الآسيوين من أهل البـــلاد، ولم يكن هذا الوضع ليشجع اليابانيين على السفر إلـــى جنـــوب أفريقيا للاستثمار والتجارة. وفي محاولة من الحكومة العنصريـــة هناك للالتفاف حول هذا الوضع، فإنـــها اضطـــرت لتصنيـــف اليابانيين باعتبارهم من الأوروبيين، حتى يمكنهم التمتع بـالحقوق المميزة للأوروبيين من أهل جنوب أفريقيا.

وبالطبع فإن الأغلبية السوداء في جنوب أفريقيا لم تستســـلم لهذا الوضع المهين، وقـــاومت منـــذ اللحظـــة الأولـــى النظـــام العنصري الحاكم، وساندها في ذلك رأي عام دولي قوي معـــادٍ للعنصرية. وقد أجبرت هذه المقاومة الحكومة العنصرية علـــى إدخال بعض الإصلاحات الشكلية منذ السبعينيات، إلا أن أســـس النظام العنصري قد استمرت حتى تم إسقاطها نهائيا فـــي عـــام ١٩٩١. وفي عام ١٩٩٤ تم انتخاب نيلســـون مـــانديلا، زعيـــم المؤتمر الوطني الأفريقي أكبر أحزاب جنوب أفريقيا المعاديـــة للعنصرية، كأول رئيس أسود لجنوب أفريقيا، بعد فـــوز حزبـــه بالأغلبية في أول انتخابات يُتاح فيها للســـود حـــق التصويـــت، وذلك بعد أن قضى مانديلا في السجن –بسبب معارضته للتفرقة العنصرية– ٢٨ عاما تحول خلالها إلـــى رمـــز للكفـــاح ضـــد العنصرية.

٦ - انتزاع المساواة يحقق التسامح :

لقد أخذت حركة استعباد السود دفعة قوية منذ بداية القرن السادس عشر بسبب اكتشاف العالم الجديد في الأمريكتين، والحاجة الشديدة للأيدي العاملة لزرع المساحات الشاسعة من الأراضي الموجودة هناك. ففي ذلك الوقت بدأت حركة نشطة لجلب العبيد من أفريقيا إلى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية في أمريكا الوسطى والجنوبية. أما في أمريكا الشمالية فلم تنشط عملية جلب العبيد من أفريقيا إلا في سبعينيات القرن السابع عشر، بعد اكتشاف زراعة الدخان التي تحقق ثروات ضخمة، في الوقت الذي تحتاج فيه إلى أيدي عاملة وفيرة، وبعد أن أصبحت عملية استعباد السكان الأصليين عاجزة عن سد احتياجات مزارع الدخان والقطن المتنامية. فقد كان شراء العبيد الأفارقة أوفر بكثير من دفع الأجور للعمال من الأوروبيين المهاجرين. فبينما كانت تكلفة شراء العبد عند منتصف القرن السابع عشر حوالي ٢٧ دولارا، فإن الأجر اليومي للعامل الأبيض كان حوالي ٧٠ سنتا، أي أن ثمن شراء العبد لم يكن ليزيد عن الأجر الذي يتلقاه العامل الأبيض في أربعين يوما.

طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت العبودية مصدرا أساسيا لتوفير قوة العمل اللازمة في شمال أمريكا. ولكن مع بداية القرن التاسع عشر بدأت حركة تحرير العبيد في تحقيق انتصارات. ففي عام ١٨١١ صدر في بريطانيا قانون يمنع العبودية ويحرر العبيد. وقد تم تطبيق هذا القانون في المستعمرات البريطانية، بما في ذلك كندا في أمريكا الشمالية، أما في الولايات المتحدة التي كانت قد استقلت عن بريطانيا قبل

ذلك بأقل من أربعين عاما، فـإن العبودية استمرت. وبينما أصدرت بعض ولايات الشمال الأمريكي قوانين لإلغاء العبودية بعد صدور القوانين البريطانية بقليل، فـإن ولايات الجنوب الأمريكي، التي كانت شديدة الاعتماد على الأيدي العاملة للرقيق في مزارع الدخان والقطن الشاسعة، قاومت ذلك الاتجاه، ولم يتم إلغاء العبودية فيها إلا بعد هزيمتها في الحرب الأهلية التي جرت بين ولايات الشمال والجنوب في الفترة ١٨٦١-١٨٦٥.

في الأول من يناير عام ١٨٦٣، في خضم الحرب الأهلية المستعرة، أصدر الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن إعلان تحرير العبيد. غير أن الإلغاء الرسمي للعبودية لم ينه التمييز ضد السود الأمريكيين، خاصة في ولايات الجنوب الأمريكي التي كانت في الجانب المعادي لتحرير العبيد أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. ففي بعض الولايات، مثل نيوأورليانز ولويزيانا والآباما وكارولينا الجنوبية ومسيسيبي، ظل السود حتى بعد تحررهم من العبودية ضحية للتمييز. فلم يكن مسموحا لهم بالاختلاط بالبيض في المطاعم والمدارس، وكانوا مُلزمين بالجلوس في المقاعد الخلفية في المواصلات العامة، كما كان من شبه المستحيل بالنسبة لهم أن يحصلوا على وظائف في الإدارات التابعة لحكومات تلك الولايات.

بل وصلت العنصرية ببعض البيض إلى حد ارتكاب أعمال عنف وفظائع، ففي ولاية نيوأورليانز في عام ١٨٦٦ قام المتعصبون البيض بأعمال شغب ضد الأحياء التي يقطنها مواطنون سود فأسفرت عن مقتل ٣٥ من السود وجرح أكثر من مائة منهم. أما في عام ١٩٠٨ فقد قام المتعصبون البيض

في مدينة سبرنجفيلد -مسقط رأس إبراهام لينكولن صاحب إعلان تحرير العبيد- بالاعتداء على الأحياء التي يسكنها السود في المدينة، وقاموا بإعدام إثنين من العجائز السود. أما في عام ١٩١٧، فقد نشبت في مدينة سانت لويس اضطرابات بين العمال البيض والسود العاملين في الصناعات العسكرية، أسفرت عن مقتل أربعين من السود وثمانية من البيض. وفي عام ١٩١٩ في شيكاغو، وقعت صدامات عرقية بين البيض والسود استمرت لمدة ثلاثة عشر يوما، وأسفرت عن مقتل ٢٣ من السود، و١٥ من البيض، بالإضافة إلى طرد أكثر من ألف أسرة سوداء من منازلهم وتركهم بلا مأوى في العراء.

لقد بلغت العنصرية ضد السود ذروتها في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، حيث ظهرت جماعات عدة من البيض المؤمنين بتفوق الجنس الأبيض، وكانت جماعة كوكلوكس كلان هي أكبر هذه الجماعات، حيث بلغت عضويتها في العشرينيات من القرن العشرين أربعة ملايين عضو، وكانت هذه الجماعة أكثر الجماعات المعادية للسود عنفا وتعصبا، وثبت تورط أعضائها في أغلب حوادث العنف العنصري التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة.

ولم يكن البيض وهم يمارسون كل هذا الاضطهاد ضد السود يستطيعون أن يقولوا للسود ما الذي عليهم بالضبط أن يفعلوه لكي يتخلصوا من هذه المحنة. وفي الحقيقة فإنه لم يكن مطلوبا من السود أن يفعلوا أي شئ للخروج من هذه الوضعية

الدونية. فكل ما كان مطلوبا منهم هو قبول وضعــهم المتدنــي، وعدم معارضته أو رفع الصوت بالشكوى.

غير أن السود لم يستسلموا لهذا الوضع، وكـــان عليـهم أن يختاروا بين واحد من طريقيـن، الأول هـو مواجهـة العنـف بالعنف، والكراهية بالكراهية، والتعصب بالتعصب. أما الطريـق الثاني فكان يقوم على اتباع أساليب الكفاح السلمي، والعمل علـى إقناع المجتمع كله -بما فيه البيض- بعدالة قضيتـهم، والعمـل على نشر المساواة والتآخي بدلا من الكراهية والتعصب والعنف المتبادل.

لقد اسودت الدنيا في وجه العديد من الأفارقـة الأمريكييـن، وكان التعصب والتمييز الذي يصادفونه أكبر من طاقتهم علـى الاحتمال، فتغلبت عليهم مشاعر الرغبة فـي الانتقـام، فكونـوا جماعات بادلت العنف الأبيض بعنف أسود، والكراهية البيضـاء بكراهية سوداء، والتعصب للبيض بتعصب للسـود، فظـهرت جماعات مثل الفهود السود والقوة السوداء، وهـي الجماعـات التي اتبعت نفس الأساليب العنصريـة التـي اتبعتـها جماعـة كوكلوكس كلان، ولكن هذه المرة ضد البيض.

غير أن القسم الأكبر مـن الأفارقـة الأمريكييـن اختـاروا الطريق الآخر، فانخرطوا في حركة الحقوق المدنية التي قادهـا الدكتور مارتن لوثر كينج منذ منتصف الخمسينيات. لـم يكـن سبيل الكفاح السلمي الذي اختارته حركة الحقوق المدنيـة أقـل تكلفة أو أقل مشقة من الأساليب العنيفة التي اختارتها الجماعـات المتطرفة. فقد عانى مارتن لوثر كينج وأنصاره مـن التصـدي

العنيف من جانب قوات الشرطة لمسيراتهم واعتصاماتهم السلمية، ومن الأوامر المتكررة بالحبس بتهم تكدير وتهديد الأمن العام، بل والتعرض لعنف الجماعات العنصرية البيضاء. ففي عام ١٩٥٥ قامت هذه الجماعات بنسف منزل مارتن لوثر كينج بسبب قيادته لأعمال الاحتجاج التي استهدفت إنهاء الفصل العنصري في وسائل المواصلات العامة في مدينة مونتجمري بولاية الآباما. ولكن صلابة الدكتور كينج أسفرت -بعد كفاح استمر أكثر من عام- عن المساواة بين البيض والسود في استخدام المواصلات العامة، وهو الانتصار الذي كان بمثابة ميلاد جديد لحركة الحقوق المدنية، فاكتسبت الحركة أنصارا جدد في كل ولايات ومدن الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد نجح الكفاح السلمي لحركة الحقوق المدنية بقيادة مارتن لوثر كينج في كسب تأييد ليس السود فقط، وإنما أيضا القسم الأكبر من البيض الأمريكيين أنفسهم. وتمثلت ذروة استعراض الحركة لقوتها وسعة التأييد الذي تتمتع به في ٢٨ أغسطس عام ١٩٦٣ عندما نجحت في تنظيم تجمع حاشد في العاصمة الأمريكية واشنطن، بلغ عدد المشاركين فيه ٢٠٠ ألف من كافة الفئات العرقية وليس السود فقط.

أمام هذا الجمع الحاشد ألقى مارتن لوثر كينح خطابا رائعا أصبح بعد ذلك جزءا أساسياً من الفكر والتاريخ السياسي لأمريكا، وهو الخطاب المعروف باسم "أحلم"، الذي نقتطف منه فيما يلي بعض الفقرات.

لدي حلما عميق الجذور نابتا في تربة الحلم الأمريكي ذاته.

أحلم بيوم تسمو فيه هذه الأمة إلى آفاق تحقيق جوهر ما تؤمن به من أن الله قد خلق الناس جميعا متساوين.

أحلم بيوم تصبح فيه حتى ولاية مسيسيبي التي تئن تحت القمع، واحة للحرية والعدالة.

أحلم بيوم يعيش فيه أطفالي الأربعة في أمة لا يُقيَم الناس فيها على أساس لونهم وإنما على أساس ذواتهم.

لدي اليوم حلما

أحلم بأنه يوما ما في ولاية الآباما، بكل ما فيها من عنصريين آثمين، وبحاكمها الذي تقطر من فمه معاني البغضاء والإنكار، سيشبك أطفالنا السود الصغار، أولادا وبنات، أيديهم مع أقرانهم الصغار من البيض كأخوة وأخوات حقيقيين.

لدي اليوم حلما

أحلم بيوم تغمر فيه المياه كل واد، وتعلو فيه هامة كل هضبة، ويصبح كل جبل أقل علوا، وتُمهد كل الطرق المُحطَمة، فتتكشف عظمة الله للناس جميعا.

هذا هو حلمنا، وهـــذه هـــي الرؤيـــة التـــي سأحملها معي إلى الجنوب، والتي بـــها ســـوف نكون قادرين على انتزاع صخور الأمل من جبـــل اليأس.

إنها الرؤية التي ستتيح لنا تحويـــل الشـــقاق الرهيب الذي يلف أمتنا إلى معزوفة إخاء جميلة.

وهي الرؤية التي سنكون بها قـــادرين علـــى العمل معا، والصلاة معا، والكفاح معا، والذهـــاب إلى السجن معا، والصعود إلـــى الحريـــة معـــا، موقنين من أننا سنصبح أحرارا في يوما ما.

إنه اليوم الذي سيغني فيه الناس جميعا أغنية جديدة:

يا وطني يا أرض الحرية الحلوة
بك أتغنى
يا أرضاً مات عليها أجدادي
يا مفخرة الأتقياء
من جنبات كل جبل
دع أجراس الحرية تدق

لقد نجحت حركة الحقوق المدنية في تحويل قضية المســـاواة بين الجماعات العرقية المختلفة في الولايات المتحدة الأمريكيـــة إلى قضية إجماع وطني، الأمر الذي تم ترجمتـــه فـــي قـــانون الحقوق المدنية الذي أصدره الكونجرس الأمريكـــي فـــي عـــام

١٩٦٤، والذي تم بمقتضاه اعتبار المساواة بين كل الأمريكيين سياسة فيدرالية ليس من حق أي ولاية أن تخالفها، على عكس الممارسة التي كانت شائعة قبل ذلك، والتي كان بمقتضاها من حق الولايات المختلفة أن تنظم العلاقات بين الجماعات العرقية التي تعيش فيها بالطريقة التي تراها. وهكذا تكون حركة الحقوق المدنية قد برهنت على أن النضال السلمي لا العنف، المؤاخاة لا الكراهية، والتسامح لا التعصب، هي السبيل الأمثل لتحقيق المساواة والحرية والعدالة.

وفي الرابع من أبريل عام ١٩٦٨ قام متعصب عنصري من البيض باغتيال مارتن لوثر كينج في مدينة ممفيس بولاية تينيسي. ومع أن الرجل الذي لعب الدور الرئيسي في القضاء على التمييز العنصري في الولايات المتحدة لم يعش طويلا ليشهد ثمار جهده، فإن ملايين الملونين من السود وغيرهم في أمريكا قد قطفوا ثمار كفاحه. وقد اعترفت أمريكا كلها بفضل الدكتور كينج في تخليصها من العبء البغيض للعنصرية عندما اتخذ الكونجرس قرارا باعتبار يوم الاثنين الثالث من شهر يناير من كل عام عيدا وعطلة قومية باسم "يوم مارتن لوثر كينج"، لتتذكر فيه الأمة الأمريكية أن عليها أن تتمسك بالتسامح وبما وصلت إليه من مساواة وعدالة بعد أن قطعت شوطا كبيرا على طريق التخلص من عنصرية اللون .

الفصل الرابع

جــذور غــيــاب التســامح

إن كان للمشاهد والوقائع التي تم عرضها في الفصل السابق أن تدل على شيء، فهو أن هناك بشراً مثلنا قد أخطأوا في حق آخرين وفي حق البشرية جمعاء عندما أدى تعصبهم إلى إسالة الدماء وتدمير الممتلكات وتهديد وحدة الأوطان، وأن هناك بشراً آخرين مثلنا أيضا قد دفعوا ثمن هذا التعنت وضيق الأفق.

قد يكون من السهل علينا أن نصدر هذه الأحكام ونحن جالسون على مقاعدنا الوثيرة، متمتعين برفاهية الحكم على التاريخ بعد صناعته، وبعد أن قال كلمته فيمن كان على صواب ومن كان على خطأ.

غير أن المغامرة والمتعة الفكرية الحقيقية هي في محاولة تفهم وتمثل الحال الذي كان عليه هؤلاء البشر الذين نستسهل إصدار الأحكام عليهم اليوم، كيف كانوا يفكرون، وما هي الدوافع التي زجتهم للتصرف بطريقة يبدو خطؤها واضحا لنا بشكل لا يدع مجالا للشك.

ربما تكون الإجابة على كل هذه الأسئلة صعبة أو حتى مستحيلة إلا إذا أتاحت لنا الظروف أن نقع على ما قد يكونوا قد خلفوه من مذكرات يحكون فيها بأنفسهم ما جرى، ويشرحون دوافعهم للتصرف بالطريقة التي تصرفوا بها. أما إذا لم يتوافر ذلك فإنه لا يبقى لنا سوى أن نتخيل ما جرى، محاولين أن نعيد بناء الطريقة التي تصرفوا بها.

١ - خطأ احتكار الحقيقة :

الشيء الوحيد الذي أظنني متأكداً منه هو أن هؤلاء الناس لم يتصوروا للحظة أنهم يرتكبون أي جرم، أو أن التاريخ سيصدر عليهم هذا الحكم القاسي الذي أصدره عليهم بالفعل. فأمثال هؤلاء كانوا مواطنين صالحين، ومؤمنين أتقياء يرون في ضحاياهم شر على الوطن والعقيدة. وكانوا شديدي التأكد من أن حكمهم هذا صحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، فكانوا مستعدين لإيقاع الأذى بآخرين، والذهاب إلى حد إزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عما اعتبروه صوابا.

ربما تتمثل المشكلة في حالة التأكد من احتكار الحقيقة، فبدون هذا التأكد لا يمكن أن يوجد تعصب. أو بعبارة أخرى، فإن المتعصب هو شخص بلغ تأكده من صحة وجهة نظره وامتلاكه للحقيقة المطلقة حدا جعله غير مستعد للدخول في أي نقاش جاد حولها، بل إنه يكون مستعدا للقتل في سبيلها. عند هذا المستوى من التأكد المطلق تختفي الحدود بين الرأي والحقيقة، فيتعامل الفرد مع رأيه باعتباره الحقيقة نفسها، ومن ثم فإن دفاعه عن رأيه وتعصبه يصبح بالنسبة له تعصب للحقيقة المطلقة، الأمر الذي يبرر له ارتكاب وفعل أي شيء في هذا السبيل.

فالبشر عادة لا يختلفون حول الحقائق والمعلومات، وهم لا يضيعون وقتهم في النقاش حولها ، ولكن الناس يختلفون حول آرائهم، ويتناقشون ساعات طويلة في محاولة من جانب كل منهم لإقناع الآخر بأن تفسيره للحقائق والمعلومات هو الأقرب للدقة. فالناس بعد انتهاء مباراة في كرة القدم لا يتجادلون حول

ما إذا كان فريقهم المفضل قد خسر المباراة أم لا، فهذه معلومة ليست موضعا للخلاف، ولكنهم يختلفون حول أسباب النصر أو الهزيمة، وما إذا كانت قرارات الحكم صائبة أم غير صائبة، وما إذا كان المدرب قد اتخذ قرارات تبديل اللاعبين في الوقت المناسب، وكل هذه آراء وليست حقائق. أما بالنسبة للمتعصب فإنه يعتقد أن رأيه حول مثل هذه الأمور هو الحقيقة نفسها، وبالتالي فإنه لن يتورع عن الاعتداء على الحكم إذا رأى أنه هو السبب في هزيمة فريقه، أو في سب المدرب واللاعبين إذا رأى أن أداءهم المتواضع هو المسئول عن الهزيمة، وهكذا. وما يسري على مباراة في كرة القدم يسري على غيرها من أمور السياسة والاقتصاد والعلاقات بين الدول والأدب والفن.

فحاجة الإنسان إلى المعرفة هي حاجة ذات شقين، شقها الأول هو المعلومات والحقائق، أما شقها الثاني فيتكون من الآراء التي تتولى تفسير المعلومات التي نتلقاها. وفي الحقيقة فإن الشق الثاني هو ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، فكل مخلوقات الله تتلقى المعلومات عن البيئة عن طريق حواسها، فترى فريسة يمكنها أن تهجم عليها لتلتهمها، أو ترى حيوانا أكبر منها حجماً وشراسة فتحاول الابتعاد عنه وتجنبه، غير أن الحيوانات لا تختلف على تفسير مغزى ما تراه من أشياء وما تتلقاه من معلومات، لأن الحيوانات لا رأي لها، الأمر الذي يميز بني البشر.

فالمعلومات -مهما كانت درجة وضوحها ودقتها- لا تفسر نفسها بنفسها، فهي تمر أولا بالعقل حيث يجري تفسيرها واستخلاص ما يراه مناسبا منها باعتباره محتواها الحقيقي

ومغزاها. فإذا افترضنا أن المعلومة الأصلية لم تكن مغلوطة تعمد ناقلها تحريفها بالزيادة أو النقصان أو بتلوينها برأيه الخاص، فإنه لا توجد هناك ضمانة بأن يكون التفسير الذي يصل إليه الفرد للمعلومات مطابقا لمعناها الحقيقي. فالفرد والجماعة تفسر المعلومات التي تصلها عبر عملية معقدة من الاستدعاء والاستبعاد واستخلاص المعنى. وخلال هذه العملية فإنه يكون من قبيل الأمر المألوف أن يجري تفسير المعلومات بشكل لا يتلاءم بالمرة مع الحقيقة، الأمر الذي يمكن إرجاعه إلى عدد من الأخطاء التي عادة ما يقع فيها العقل أثناء عملية تفسير المعلومات.

فالفرد منا لا يتلقى معلومة واحدة، وإنما عددا كبيرا من المعلومات. وهو لا يقوم بتفسير معلومة واحدة، وإنما يقوم بتفسير عدة معلومات في نفس الوقت، خاصة في محاولته اكتشاف العلاقة بين المعلومات العديدة. والخطأ الذي عادة ما يقع فيه العقل البشري هو قيامه بشكل غير قصدي باستبعاد بعض المعلومات أو اعتبارها غير ضرورية. مع أنه قد يتبين فيما بعد أن هذه المعلومات المستبعدة بالذات كانت أكثر أهمية من المعلومات الأخرى التي جرى التركيز عليها.

٢ ـ حلقة التبعصب المفرغة :

وربما يكون السؤال التالي هو على أي أساس يقوم العقل البشري باستبعاد بعض المعلومات وقبول بعضها الآخر؟ وتكمن الإجابة فيما نلاحظه في حياتنا اليومية من ميل الأفراد لتفسير المعلومات وتكوين الآراء على أساس من آرائهم السابقة. فإذا

كان لدى واحد منا رأي مفاده أن جاره هو شخص عدوانـــي لا يكن له الا كل شر، فإذا حدث وتلقى معلومة تفيد بأن جاره هـذا قد أتى تصرفا ينم عن حسن النية، فإن صاحبنا عادة ما يذهـب إلى عدم الاهتمام بهذه المعلومة، بل إنه قد يذهب إلى القول بـأن هذا التصرف ليس إلا حيلة وجزءا من مؤامرة كبرى لا يقصـد منها سوى الاستمرار في إيقاع الأذى. أي أن العقـل البشـري يتعامل مع المعلومات بغرض تأكيد آرائه المسبقة. فإذا كان لـدى الفرد آراء متعصبة معادية لجماعة عرقية أو قوميـة أو طائفـة ما، فإنه سيميل لتفسير أي معلومات جديدة تصل إليه لتأكيد هـذا الرأي وليس تعديله، وهكذا فإن العقل البشري عندمـا يسـيطر عليه التعصب يدخل في حلقة مفرغة تؤدي باستمرار إلى تثبيـت الأفكار الراسخة مسبقا، وهذا هو بالضبط تعريـف الشـخصية المتعصبة كما يراها علماء النفس. وبينما يمكن لأي منا أن يقـع في نفس الخطأ، فإن المتعصب يقع فيه طوال الوقـت، خاصـة عندما يتعلق الأمر بالقضية التي تستحوذ على اهتمامه وتعصبه.

والشخص المتعصب لا يرى نفسه على هذه الصورة، علـى العكس فإنه يميل لرؤية نفسه في صـورة إيجابيـة، باعتبـاره إنسان عادل وموضوعي ونزيه وغير متحيز. أكثر من هذا فإنـه يميل لرؤية نفسه في موقع الضحية، الذي يعاني مـن تعصـب الآخرين ضده. أما إذا ضبطته متلبسا بممارسة التعصب، فـإن هذا لا يسبب له حرجا أو إزعاجا، لأنه يعتقد بشدة بأنـه ليـس متعصباً، وبأن أفكاره ومواقفه تجاه الآخرين ليسـت سـوى رد فعل ونتيجة لمواقفهم المتعصبة والمتحيزة ضـده، وأن مواقفـه بالتالي هي مجرد قراءة موضوعية للواقع الذي يتمـيز بتحـيز

الآخر ضده ورفضه له. أما هو نفسه فإنه إنسان طيب القلب ذو أخلاق كريمة، يعامل الآخرين بالعدل والحق، وأنه إذا كان يبدو منه ما يمكن اعتباره تعصبا وتحيزا ضد الآخر، فإن هذا ليس سوى مظهر خارجي ثانوي، وأن هذا المظهر يمكن له أن يتغير إذا تغير سلوك وموقف الآخرين منه، فموقفه إزائهم هو أولاً وأخيراً مجرد رد فعل لما يفعلونه تجاهه.

وسوف يدهشك أن تسمع نفس هذا التحليل -أو التبرير- من طرفين ينتميان إلى جماعتين متناحرتين، فقد تسمعه من هندوسي ومسلم في الهند، أو من أحد أبناء قبائل الهوتو وآخر من قبائل التوتسي في رواندا، أو من يهودي وكاثوليكي في بولندا، أو من أبيض وأسود في أمريكا، أو من أرجنتيني وبرازيلي في أمريكا الجنوبية، غير أن مثل هذا التشابه في الحجج المستخدمة على جانبي الصراع لا يجب أن يكون مدهشا على أي حال، فمثل هذا المنطق نسمعه في كل مرة نحاول فيها التوفيق بين زوجين أو جارين أو صديقين متخاصمين، وهو منطق يقوم على نفي المسئولية عن الذات، وتحميلها تماما للطرف الآخر. وبالتالي فإن كل طرف في مثل هذا الصراع يرفض القيام بأي مبادرة لإنهاء هذه الحالة من العداوة والبغضاء، فكل منهم يظن أنه بالفعل قد قام بكل ما يمكنه القيام به، وأن أي كسر لحلقة التعصب والكراهية لابد أن تأتي من ناحية الطرف الآخر، الأمر الذي لا يؤدي سوى إلى استمرار حلقة التعصب الجهنمية.

لقد تحاربت الشعوب والجماعات كثيرا، فتحاربت قبائل الرعاة مع الفلاحين، وتحاربت قبائل الفلاحين مع بعضهم،

وخيضت حروب من أجل نشر الأفكار والعقائد، وخيضت حروب أخرى من أجل الدفاع عن النفس خوفا من تهديد الآخر.

في سياق هذا كله حدث الكثير من التجاوزات والمآسي والجرائم، فمات أبرياء من أطفال وشيوخ، واغتصبت نساء، وهدمت بيوت، وخربت مزارع. وكان الخاسر في كل مرة يكظم غيظه ويستجمع قوته حتى يصبح قادرا على الانتفاض من أجل الثأر ورد الأذى لقاهريه. فعندما يتبدل الحال، وتصبح للمظلوم اليد العليا، فإنه يرد الصاع صاعين، ويعيد تكرار مشاهد القسوة التي كان هو نفسه ضحية لها في الماضي، فيفعل بالضبط ما اعتاد انتقاد الآخر عليه، ويرتكب نفس الجرائم التي طالما اعتاد استنكارها.

من أجل الثأر تبدأ دورة جديدة من الصراع، فيسقط أبرياء جدد، وتنهدم بيوت أخرى، وتغتصب نساء أخريات. وفي كل مرة يسقط فيها ضحايا جدد، وفي كل مرة تتجدد فيها الآلام، فإن جدار عدم الثقة والكراهية يصير أكثر سمكا وارتفاعا.

فإذا أراد العقلاء وقف نزيف الدم والخراب وإنهاء الصراع عبر تقصي أسباب الصراع والكراهية، فإن الطريق في أغلب المرات يكون مسدودا، فكل جماعة لديها من الأسباب ما يكفي لتبرير المزيد من الصراع، ولكل جماعة أن تجد في تاريخ الصراع الطويل ما يكفيها من ذخيرة المبررات لتدعيم مواقفها ومطالبها، فتاريخ الصراع طويل، والأحداث فيه كثيرة، ولكل طرف أن ينتقي منه ما يكفيه حجة ومبررا.

ففي أغلب الصراعات بين الشعوب والجماعات يكون النظر للماضي طريقا للمزيد من الصراع والكراهية. ولا

مخرج من دورة العنف الجهنمية هذه سوى أن يقف العقلاء من كل طرف ليتدبروا ماذا يجري وما جرى، وليقرروا البدء من جديد. وبالتأكيد فإن هناك حقوقا مطلوب ردها إلى أهلها، ومطالب متبادلة في حاجة لتسوية، وإجراءات وترتيبات لمنع تكرار مآسي الماضي مرة أخرى في المستقبل. كل هذا لابد من التفكير فيه، وكل هذه مشكلات لابد من حلها، ولكن دون أن تكون الكراهية والرغبة في الثأر هي الحافز، وإلا تكررت فصول الماضي الأليمة مرة أخرى.

فالثأر هو من بين المشاعر البشرية غير النبيلة، لأنه عنف لا هدف له سوى إيقاع الأذى بالآخر، ودون أن يكون في ذلك بالضرورة تحقيق لمكسب أو بناء لمستقبل، أو تأمين لحياة أجيال جديدة. وكم رأينا في جنوب مصر من شباب في زهرة العمر يدفع مستقبله وربما حياته كلها ثمنا للأخذ بالثأر، فتضيع حياة جديدة دون أن يرد الثأر للقتيل روحه ولا لليتيم أبيه.

وبالرغم من أن مشاعر الكراهية والتعصب العرقي والطائفي والقومي تكون عادة بدون مبرر مقنع لأي مراقب من الخارج، فإنه من الممكن ملاحظة ودراسة العملية التي تتكون وفقا لها هذه المشاعر. فعادة ما تكون نقطة البداية هي تنافس أفراد ينتمون لجماعات مختلفة على الموارد، وقد تكون الموارد موضوع النزاع مادية مثل الصراع على الأرض والثروات الاقتصادية، أو معنوية مثل حالات الصراع على النفوذ السياسي والمكانة الاجتماعية. فأبناء إحدى الجماعات قد يكونون أكثر ثراء بشكل مثير للاستفزاز أو الإحساس بعدم العدالة لدى الآخرين، كما قد يحتكرون مناصب الحكم والسلطة

بما يثير لدى الآخرين شعورا بالقهر والخضوع. كما قد يبدأ الصراع عندما يسعى أبناء بعض الجماعات للفوز بالاعتراف والاحترام الرمزي، وهو ما يحدث عندما يشعرون أن رموزهم ومقدساتهم لا تلقى الاحترام الكافي، أو أنهم لا يتلقون معاملة محترمة متساوية مع ما تلقاه الجماعات الأخرى.

٣ - تأثير ثورة الاتصالات على التعصب :

وعلى عكس ما قد يكون شائعا، فإن خطورة الصراعات العرقية والطائفية والقومية تزيد في المجتمع الحديث، وذلك بسبب التقدم الحادث في وسائل الاتصالات والمواصلات. فمع تقدم المجتمع وانتشار المعرفة والتعليم ووسائل الاتصال الحديثة، يصبح أبناء الجماعات الأقل تميزا أكثر إدراكا لواقع التمييز الذي يعانون منه. فمن خلال انتشار المعرفة والتعليم ووسائل الاتصال تتوافر لهم معلومات ومعارف يستنتجون منها أن ما يعانون منه من اضطهاد ليس ظاهرة فردية، وإنما هو ظاهرة جماعية يتعرض لها كل من يشاركهم العرق أو اللغة أو الدين. كما يتعلمون أكثر عن الجماعات التي تضطهدهم، فتتكون لديهم تدريجيا مشاعر التضامن الجماعي، وأيضا مشاعر العداء للآخر. كما أن توافر المعرفة يتيح لهم رؤية الحال في مجتمعات أخرى لا يتعرض فيها أقرانهم لمثل ما يتعرضون له، فيتعلمون أن الوضعية المفروضة عليهم ليست قدرا محتوما، وأن هناك إمكانية لتغييرها.

وفي مرحلة تالية تتكثف أحاسيس الشعور بالاضطهاد لدى الجماعة. ويبدأ مثقفوها بالبحث في الماضي البعيد عن أصل

المعاناة ونقطة بدايتها. وعادة ما ينجح هؤلاء المثقفون في إيجاد وقائع في التاريخ القديم يعتقدون أنها تشرح وتفسر لهم ما يتعرضون له. فيختصر تاريخ الجماعة كله في هذه الوقائع، ويجري نسج الخيالات والأساطير حولها، فتكتسب هالة من القداسة لا يمكن معها مناقشتها مناقشة موضوعية جادة. فيصبح تدارس هذه الأساطير وتداولها سببا في إثارة الكراهية للآخر والحماس للانتقام منه في نفس الوقت.

وفي مرحلة ثالثة، يفقد الفرد من أبناء الجماعة فرديته، ويتوحد تماما مع جماعته، فيحب ما تحب ويكره ما تكره، ويفقد القدرة على إعمال عقله بموضوعية فيما يقال له، وتصبح خبرة الجماعة هي خبرته الذاتية، فيتحدث عن واقعة جرت قبل أن يولد بقرون طويلة مستخدما ضمير المتكلم، فتسمعه يقول وهو يتحدث عن الجماعة الأخرى التي أصبحت موضعا لكراهيته وحقده، "لقد هاجمونا في موقعة كذا، وعندما قاومناهم، قتلونا وعذبونا"، فتظن وأنت تسمعه أنه كان هناك، وأنه حارب في تلك الموقعة، وأنه كان من بين من قاسوا التقتيل والعذاب. عند هذه اللحظة ينقسم العالم لديه إلى "نحن" و "هم"، فيصبح عاجزا عن التفكير والتعبير من دون أن يستخدم هذه الثنائية، ومع أن هذا الثنائية البسيطة تختصر كل العالم إلى فئتين اثنين، مما يجعلها شديدة السذاجة والبساطة، فإن هذه البساطة نفسها هي التي تتيح للأساطير حول "الأنا والآخر" و "هم ونحن" الانتشار والشيوع بين جموع البسطاء.

وفي المرحلة الرابعة يتحول الموقف المعادي للآخر إلى عقيدة راسخة لا تقبل النقاش، أي أنها تتحول إلى رؤية كاملة

للتاريخ والعالم، فيعاد تفسير التاريخ كله من منظـــور صـــراع الجماعة مع الآخر، كما يجري تقسيم العالم إلى أعداء وأصدقـــاء بناء على الموقف من الصراع مع الآخر، وهي رؤية تبســـيطية ترى العالم مقسما بين أبيض وأسود، وتكون عاجزة عن رؤيـــة التنوعات الكثيرة والمعقدة الموجودة في العالم المليـــيء بمـــا لا حصر له من درجات اللون الرمادي.

عند هذه المرحلة أيضا يبدأ مثقفو الجماعة فـــي اكتشـــاف مزايا الجماعة، فيأخذون في إطلاق صفات الشجاعة والعبقريـــة والتميز والكرم عليها، فيجتزئون من التاريخ والقصص الشـــعبي وعادات الجماعة وتقاليدها ما يؤكد هذا من الوقائع والأحـــداث. في نفس الوقت فإنهم يأخذون في إطلاق خبيث الصفـــات علـــى الآخر، فهو خسيس ونذل ومتآمر وبخيل ومتوحش، حتى تظنـــهم وأنت تسمعهم يتحدثون عنه إنما يتحدثون عن كائنات غريبـــة لا تنتمي لجنس البشر.

ولظاهرة إطلاق الصفات على الآخر دور خطير في تصعيـد واستمرار الصراعات. فإطلاق الصفات السلبية علـــى الآخـــر يجعل لصراعنا معه قيمة أخلاقية، بحيث أننا عندمـــا نتصـــارع معه فإننا نكون في صراع مع قيم الطمع والحقد والهيمنة التـــي يمثلها، الأمر الذي يعطي لموقفنا قيمة أخلاقية ومعنوية عاليـــة، ويبرر تشددنا في مواجهته ورفضنا التفاهم معه.

فما يحدث عادة هو أن الناس ينســـون تدريجـــيا الســـبب الأصلي للصـــراع، أي الصـــراع علـــى المصـــالح والمـــوارد والمكانة، ويتعاملون مع الصفات السلبية التـــي أطلقوهـــا علـــى الآخر، باعتبارها السبب الرئيسي، وربما الوحيد للصراع. فمـــا

أن تبدأ مسيرة إطلاق الصفات السلبية على الآخر، فإنها لا تتوقف. فبعد أن كان الجيل الأول من الصفات السلبية التي تم إطلاقها على الآخر قريبة بهذا القدر أو ذاك من السبب الأصلي للصراع على المصالح والموارد، فإن الجيل التالي من الصفات السلبية يأخذ في البعد تدريجيا عن السبب الأصلي للصراع، فيضاف البخل إلى الطمع، وتضاف الكراهية إلى الحقد، وتضاف الوحشية والقسوة إلى حب السيطرة.

وفي مرحلة ثالثة يضاف إلى الأوصاف السابقة جيل إضافي من الصفات، ينصرف هذه المرة، ليس إلى مجموعة الصفات المتعلقة بموقف الآخر منا أو من أي جماعة مختلفة عنه، ولكن إلى خصائصه هو نفسه، بغض النظر عن علاقته بنا أو بغيرنا. ففي هذه المرحلة تطلق على الآخر أوصاف سلبية من نوع أن رائحته كريهة، وأنه يتسم بالقذارة وعدم الاعتناء بالنظافة الشخصية، وأنه منحل أخلاقيا، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية، وأنه شهواني يبالغ في الاهتمام بالمتع الحسية، وأن أفراده يتسمون بالغباء وقصر النظر، أو أنهم كسالى لا يحبون العمل.

٤ - رسم الصورة السلبية للآخر:

ينتج عن هذا رسم صورة سلبية شديدة القتامة والسوداوية للآخر، وهو ما يسميه علماء الاجتماع والسياسة <u>بالصور النمطية</u>، بحيث تبدو كراهيتنا وعداوتنا له مبررة. وبعد أن كان للصراع أسبابه المتعلقة بالتنافس على الموارد، فإن طبيعة الصراع تتغير لتدور حول الصورة التي رسمها كل طرف

للآخر. وتكتسب هذه الصور النمطية حياة خاصة بـها، بحيث أنه حتى إذا زال السبب الأصلي للصراع واختفى، فإن الصور التي تكونت خلاله تستمر في الوجود، وتستمر في تعكير صفو العلاقات بين الطرفين، بل إنها قد تؤدي إلى منع التوصل إلى حل للصراع الأصلي بسبب الشكوك والمخاوف العميقة المتبادلة.

وبمجرد أن تصبح صفات الآخر وخصائصه الذاتية هي السبب في الصراع معه، دون علاقة واضحة بتباين واختلاف المصالح، فإن الطريقة الوحيدة المقبولة لحل الصراع هي أن يقوم الآخر بالتخلي عن صفاته، والتحول إلى كائن، فرد أو جماعة، طيب القلب ورقيق مثلنا.

ولكن لأن الصفات التي خلعناها على الآخر هي في الغالب من صنعنا نحن، فإن الآخر لا يعرف كيف يغير من نفسه، بل إنه عادة لا يعرف السبيل إلى ذلك. أكثر من هذا فإنه بدوره يفكر في أسباب الصراع وطرق حله بنفس الطريقة التي نفكر بها في حله، فيطلق علينا صفات سلبية مماثلة للصفات التي أطلقناها عليه، وهو بدوره لا يرى حلا للصراع سوى بأن نقوم بتغيير أنفسنا. ولكن لأننا بدورنا لا نرى في أنفسنا الصفات التي يراها الآخر فينا، فإننا لا نعرف كيف نغير أنفسنا، ناهيك عن رفضنا لذلك لأننا نحب الحال التي وجدنا أنفسنا عليها. ولأن الصور النمطية لها حياتها القائمة بذاتها، ولأن تغيير الذات والصفات الجماعية هو أمر غير وارد حدوثه إلا بشكل استثنائي، فإن الصراعات والحروب تستمر.

عند هذه المرحلة تصبح الجماعة كالقطيع الذي يسير كله في اتجاه واحد، دون أن يكلف أي من أعضائها مشقة طرح التساؤلات. ويصبح الإيمان المطلق بالأفكار السائدة هو المادة اللاصقة التي تحافظ على وحدة الجماعة وتماسكها. أما إذا تجرأ أحد وطرح أسئلة قد يشتم منها الشك في القناعات السائدة، فإن الجماعة تنظر إليه بشك، وترى في تساؤلاته محاولة لإضعاف وحدتها. بل إنها قد ترى فيه خائنا، فتفرض عليه عقوبات قد تصل إلى حد القتل، ولكنها في أغلب الأحيان تقف عند حد فرض العزلة، فيصبح المتسائل معزولا بين أهله، لا يتعامل معه أحد، وإذا تعامل أحد معه فإنه ينظر إليه بريبة وربما احتقار، وهو موقف شديد القسوة، وعالي التكلفة، الأمر الذي يضع الأفراد في اختيار صعب بين النفاق والانصياع لإرادة الجماعة من ناحية، أو التعبير الحر عن الرأي وتحمل تكلفة ذلك من ناحية ثانية. وعادة ما يختار الناس الانصياع لإرادة الجماعة ومعتقداتها، فيحتفظون بتساؤلاتهم لأنفسهم، ويضطرون لإعلان ما لا يبطنون، ويظهرون حماسة كاذبة للآراء السائدة، حتى عندما يرونها تقود الجماعة كلها إلى الهوة السحيقة والكارثة.

وعند هذه المرحلة أيضا تصبح الأوضاع جاهزة للانفجار. فعند أول حادثة تهيج المشاعر المستثارة أصلا، ويهب الناس بالآلاف للانقضاض على الآخر الذي تكرست القناعة بأنه ليس إلا وحشا، فيكون الدمار والقتل والتخريب.

وفي حالات الصراع العرقي والطائفي والقومي من هذا النوع، فإننا نجد مثل هذه المواقف والاتجاهات على جانبي

الصراع. فكل جماعة ترى في نفسها في موقع المضطهد والمظلوم والمستهدف، وأن وجودها ذاته يتعرض لخطر داهم ما لم تتصد بلا هوادة للتهديد الذي يمثله الآخر. وفي أغلب الحالات فإن تسوية مثل هذه الصراعات وتحقيق التصالح بين أطرافها يكون مستحيلا بسبب سيادة نفس الطريقة في النظر إلى الذات والآخر على جانبي الصراع، والمحزن أن الأمر يظل هكذا حتى تقع الكارثة، ويسقط الضحايا ويحل الدمار، الذي قد يكون كافيا لإيقاظ العقول، وتشجيع المتشككين الذين عجزوا في المراحل السابقة عن البوح بشكوكهم.

خاتمة

كما يحدث بين الأفراد، فإنه يحدث بين الجماعات. فكل جماعة ترى كل الحق والمشروعية في مطالبها، وترى أن ما تطالب به لا يمثل سوى العدل، أما الطرف الآخر فإنه لديه الكثير من الموارد التي تسمح له بالتخلي عن بعضها، أو أنه لا حق له فيما يحوز بالفعل لأنه استولى عليها من لدنًا في المقام الأول.

المهم في كل هذا أن الأفراد والجماعات يعجزون عن تخيل أنفسهم ولو للحظة واحدة في موقع الطرف الآخر، محاولين تصور كيف كان لهم أن يتصرفوا إذا وجدوا أنفسهم في محله، أو محاولين تفهم دوافعه واحتياجاته ومبرراته، وهو الشيء الذي ربما إذا فعلوه لتبينوا الأمور بشكل مختلف، ولاستطاعوا التعرف على بعض مظاهر الوجاهة في حجج الآخر ومطالبه، كما يستطيعون تبين بعض مكونات المبالغة والتزيد في مطالبهم.

القاعدة الذهبية للتعامل مع مشكلة الصراعات الطائفية والعرقية والقومية هي مساعدة الناس وتدريبهم على التسامح الذى يبدأ باتباع مبدأ "عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك".

فإذا كان التركي يحب للأقلية التركية في اليونان أن تتمتع بحق التحدث بلغتها القومية، فإن عليه أن يفعل نفس الشيء تجاه الأقلية الكردية في تركيا. وإذا كان المسلم يحب للأقلية المسلمة في الهند أن تمارس دينها ومعتقداتها بحرية تامة وبكل احترام، فإن على المسلمين في بلادهم أن يتيحوا نفس القدر من الحرية والاحترام لغير المسلمين الذي يعيشون بينهم. وهكذا..

هذه القاعدة الذهبية على بساطتها تمثل الخطوة الأولى على طريق تخفيف حدة الصراعات بين الجماعات الأولية. وبالطبع فإن تعود الناس على التسامح لن يكون بالأمر السهل، وإنما عملية طويلة معقدة، ولكن المهم أن نبدأ رحلة الألف ميل بدءا من هذه اللحظة.

رقم الإيداع : ٩٨٠٦/٢٠٠٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 997-227-127-3

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

موسوعة الشباب السياسية

هذه الموسوعة هى باكورة التعاون بين المركز ووزارة الشباب. وهى تشمل إصدار ٢٠ كتيب عن المفاهيم والمؤسسات الأساسية التى يصادفها الشباب بشكل متكرر خلال مطالعتهم للصحف أو مشاهدتهم للتليفزيون.

وتصدر هذه الموسوعة بدعم مالى من مؤسسة الأهرام ووزارة الشباب. وتمثل استكمالا لرسالة المركز منذ ان اصدر أول موسوعة عن الصهيونية فى أوائل السبعينات. كما تمثل دعما لمشروع طموح تقوم به وزارة الشباب لتطوير مراكز الشباب فى كل المحافظات.

وتهدف الموسوعة الى تزويد الشباب بمعرفة مبسطة وسليمة وموضوعية ومنزهة عن الغرض. ونقدم فى هذا العدد الثالث مفهوم التسامح وأهميته ليكون تنوع واختلاف الناس نعمة ومصدر ثراء للمجتمع.

ونقدم فى الأعداد التالية تعريفا بمفاهيم أخرى مثل الدستور والمشاركة والمجتمع المدنى، وسيادة القانون والأمن والخصخصة والبورصة والسياسة الخارجية وثورة الاتصالات وغيرها .

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر